الفصل الرابع

نظم الحكم

- ديمقراطية الإسلام .
- الخلافة .
- الإدارة .
- الوزارة .
- الحجابة .
- الكتابة .
- تدوين الدواوين .
- القضاء .
- الشرطة .
- البريد .
- الجيش .
- البحرية .
- حكومة الأقاليم .

obeikandl.com

obeikandl.com

نظم الحكم

ديمقراطية الإسلام (الشورى)

الشورى ألفة للجماعة، وسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاورقوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم .

وإن من ينظر فى القرآن الكريم، والسنة النبوية يظهر له أن الحكم فى الإسلام يقوم على الشورى؛ فإن الله سبحانه قد جعل أمر المسلمين شورى بينهم، وقرن اتصافهم بها بإقامتهم الصلاة، واستجابتهم لربهم، «وساق وصفهم بهذا مساق الأوصاف الثابتة، والسجايا اللازمة، كأنه شأن الإسلام ومن مقضياته» (١)، قال جل شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:٣٨] ، كما أمر رسوله بالمشورة مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده؛ فقال عز من قائل: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩]؛ قال الحسن البصرى: «أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون، ويتبعه فيها المؤمنون»،«وليستخرج منهم الرأى فيما لم ينزل فيه وحى من أمر الحروب، والأمور الجزئية» وإن كان عن مشورتهم غنيا (٢).

كذلك وردت فى السنة عدة أحاديث تدعو إلى الشورى وتحث عليها، وكانت من سنته ﷺ ، ومن سنة خلفائه الراشدين من بعده؛ فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: «لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ» (٣) ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «من أراد أمرا، وشاور فيه وقضى هدى لأرشد الأمور» . وأخرج عبد بن حميد والبخارى فى الأدب وابن المنذر عن الحسن قال: ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم، ثم تلا: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:٣٨] » (٤) .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص١٦٩، السياسة الشرعية للمرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف .

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردى ص٢٧٢، السياسة الشرعية لابن تيمية ص١٦٩ .

(٣) السياسة الشرعية لابن تيمية ١٦٩، زاد المعاد لابن القيم الجوزية حـ٢ ص٩٠ ط صبيح.

(٤) راجع كتب التفسير فى قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

وحين قامت دولة الإسلام بالمدينة، وتم تكوينها بالمعاهدة التى عقدها ﷺ بين المسلمين ويهود المدينة، والتى وادعهم فيها، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وكان من شروطها المساواة بين الطرفين، وتعهد اليهود بالدفاع عن المدينة إذا ماهاجمها عدو، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ – أصبح النبى ﷺ – إلى جانب كونه رسولا يبلغ عن ربه ما أمر بتبليغه من أمور الدين – الرئيس الأعلى للمدينة، إليه المرجع فى كل شىء، ومع ذلك لم يستبد برأى، ولكنه كان يستشير أصحابه فى كل ما يعرض من أمور ليس فيها حكم من الله تعالى، ويعمل بمشورتهم؛ فتراه فى غزوة بدر يعدل خطته الحربية بمشورة الحباب بن المنذر حين قال له: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس، حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون؛ فقال له: «لقد أشرت بالرأى».

ثم نراه بعد أن انتصر على قريش يستقر رأيه – بعد أن استشار أصحابه – على قبول الفداء من قريش فى أسراها، وكان هذا رأى أبى بكر وأكثر الصحابة.

وشاور أصحابه يوم أحد فى المقام واخروج، فرأوا له الخروج فخرج.

كما نزل على مشورة سلمان الفارسى فى حفر خندق حول المدينة فى غزوة الخندق.

واستشار صلوات الله عليه أهل بيته، وخاصته فى حديث الإفك.

وهكذا كان النبى صلوات الله عليه يستشير أصحابه، ويعمل بمشورتهم فى كل ما ليس فيه وحى من السماء، وظل كذلك لى أن لحق بالرفيق الأعلى.

* * *

الخلافة [1]

عرف ابن خلدون الخلافة بأنها: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة؛ فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين، وسياسة الدنيا به».

وعرفها صاحب الأحكام السلطانية بقوله: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين، وسياسة الدنيا».

وعرفها صاحب المقاصد بأنها: «رياسة عامة فى الدين والدنيا، خلافة عن النبى ﷺ».

وعرفها غيرهم بما لا يخرج عن ذلك [2].

والخليفة إذن هو القائم بحراسة الدين، وسياسة الدنيا عن النبى ﷺ.

«ونحن إذا رجعنا إلى هذه التعاريف وغيرها من التعاريف التى ذكرها العلماء نجد أنهم جميعاً قد اتفقوا على تقديم أمور الدين والعناية به على أمور الدنيا، وأن سياسة الدنيا يجب أن تكون على أساس الدين وشرائعه؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة» [3].

---

(١) الخلافة: النيابة. استخلف فلانا من فلان جعله مكانه ... والخليفة الذى يستخلف ممن قبله ... والخليفة السلطان الأعظم. وخلفه خلافة كان خليفته، وبقى بعده، والجمع خلائف وخلفاء -- لسان العرب، القاموس.

(٢) راجع المسايرة للكمال بن الهمام وشروحها، والمواقف والمقاصد فى بحث الإمامة.

(٣) ابن خلدون جـ٢ ص١٥٨، وهذا ما يجب أن نتدبره دائماً؛ فإن صلاح أمور الناس فى الدنيا رهن بأخذهم بالدين وتشريعاته وتعاليمه.

وظيفة الخليفة [1] :

كان للنبى ﷺ وظيفتان :

الأولى : أن يبلغ عن الله ما أمر بتبليغه بحكم الرسالة التى اختير لأدائها .

والثانية : كونه إماماً للمسلمين، ورئيسا أعلى لهم يوجههم نحو الخير، ويبعدهم عن الشر، وإليه المرجع في كل ما يحدث بينهم من أحداث، وهو الذى يحكم بينهم بما أنزل الله، وهو القائد للجند إلى غير ذلك من أمور الدولة .

والوظيفة الأولى انتهت بموته ﷺ بعد تشريع ما أراد الله تشريعه؛ فلم يكن لأحد من بعده إلا البناء على قواعد تلك الشريعة .

والوظيفة الثانية ظلت باقية، بل كانت ضرورية؛ إذ لم يكن للمسلمين بد منها حتى لا يفشلوا، وتذهب ريحهم، وتدول دولتهم .

ومن ثم لم يروا بدا من إقامة من يخلف رسول الله ﷺ فى خلافة المسلمين؛ إذ إن سنة الله فى خلقه أن كل جماعة مهما قل عددها لا بد لها من رئيس يدبر أمورها، ويدير شئونها، ويكون به قوامها، وإلا لا يقر لها قرار، ولا يستقيم لها حال .

وجوب نصب الخليفة :

أجمع أهل السنة، وجمهور الفرق الإسلامية الأخرى على وجوب نصب الإمام العادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها الرسول صلوات الله عليه [2]؛ يقول صاحب الأحكام السلطانية : « وعقدها (أى الإمامة) واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم » .

---

(١) يسمى خليفه لكونه يخلف النبى ﷺ فى أمته، ويسمى إماما تشبيه بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به، ولهذا يقال لها : الإمامة الكبرى، ويسمى أمير المؤمنين، لأنه لما مات أبو بكر رضى الله عنه، وكان يدعى خليفه رسول الله قيل لعمر : خليفة خليفة رسول الله، فقال المسلمون : من جاء بعد عمر قيل له : خليفة خليفة خليفة رسول الله ، فيطول هذا، ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة يدعى به من بعده من الخلفاء، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ : نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعى عمر أمير المؤمنين، فهو أول من سمى بذلك، وقيل فى تسميته أمير المؤمنين غير ذلك راجع مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٥١٩ ، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٤٩ ، الطبرى جـ٣ ص ٣٧٧ طبعة التجارية، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٩٤ .

(٢) راجع الفصل لابن حزم جـ٤ ص ٨٧ .

ويقول ابن خلدون: «إن نصب الإمام قد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه، وتسليم النظر إليه فى أمرهم، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك، ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام»(١).

ويقول الكمال بن أبى شريف: «وأما وجوبه علينا فلأنه قد تواتر إجماع المسلمين فى الصدر الأول عليه، حتى جعلوه أهم الواجبات، وبدءوا به قبل دفن الرسول ﷺ» «وكرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة»(٢).

شروط الإمامة :

أهم الشروط التى رآها العلماء هى :

العلم والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر فى الرأى والعمل، واختلفوا فى شرط النسب القرشى، والجمهور على اشتراطه(٣).

١- لإجماع الصحابة عليه يوم السقيفة .

٢- ولاحتجاج قريش على الأنصار بقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»(٤).

وخالف فى هذا الشرط القاضى أبو بكر الباقلانى، وبعض العلماء وعلى رأسهم ابن خلدون .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥١٩، الأحكام السلطانية الماوردى ص٣ .

(٢) المسامرة ص٢٥٣، ٢٥٤، الطبرى جـ٢ ص٤٤٧ .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص٤، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٢٢ .

(٤) هذا الحديث رواه النسائى من حديث أنس، ورواه بمعناه الطبرانى فى الدعاء، والبزاروالبيهقى، وأفرده ابن حجر بجزء جمع فيه طرقه عن نحو من أربعين صحابيا - المسامرة ص٢٦١، ورواية السيوطى فى تاريخ الخلفاء: «الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا، ووعدوا فوفوا، واسترحموا فرحموا» ص٦، وأخرج البخارى عن معاوية أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، وأخرج أيضا عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان» وقال شارحه العينى: وهذا الحديث أخرجه البخارى أيضا فى الأحكام عن أحمد بن يونس، وأخرجه مسلم فى المعازى عن أحمد بن يونس أيضا، كما أخرجه أيضا فى كتاب الإمارة بلفظ: «لا يزل هذا الأمر فى قريش ما بقى من الناس اثنان»

ولم تختلف كلمة المسلمين، وتتشعب آراؤهم فى شىء كما اختلفت وتشعبت فى الخلافة [1]، وكان مدار بحثهم فى أمرين :

الأول : البيت الذى يكون منه الخليفة .

والثانى : الشكل الذى به ينتخب الخليفة .

بيت الخلافة :

« من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت، أو بطن، أو شعب يكون منه خليفة المسلمين، وأما الرسول صلوات الله عليه فروى عنه : « الأئمة من قريش » كما أثر عنه : « اسمعوا وأطيعوا، وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

وعقب وفاة النبى ﷺ كان الناس فريقين :

الأول : يرى عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت .

والثانى : يرى تخصيصها . وهذا الفريق انشعب إلى شعبتين :

الأولى تخصيصها بقريش بلا فرق بين بطونها، والثانية تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله ﷺ .

ورأى عدم التخصيص كان للأنصار؛ فإنهم كانوا يرون أن يكون الخليفة منه، لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء، والأعمال العظيمة التى قاموا بها للإسلام، وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير، ومن المهاجرين أمير.

وأخذ بهذا الرأى من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى الأزمنة المختلفة، ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة التميمى؛ فإنهم كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح، وإبعادهم عن الشر، والسير فيهم بأوامر دينهم، غير ناظرين فى ذلك إلى بيت أو قبيلة، بل إلى ما فى الشخص من المقدرة والكفاية، ويستندون فى رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن الكريم، وبينتها السنة الشريفة، وهى :

---

(١) يقول الشهرستانى فى الملل والنحل : « ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان » ص ٢٠ من القسم الأول تحريج الأستاذ بدران .

إن التقوى أساس التفاضل بين الناس. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقال ﷺ: «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى».

ورأى التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأيًا للجمهور، لما رواه لهم أبو بكر من حديث: «الأئمة من قريش»، وقد بين رضى الله عنه طرفًا من علة هذا التخصيص بقوله: «إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس، ولا يدين العرب إلا لهذا الحى من قريش»(١).

ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون أن السر فى تخصيص قريش بالخلافة يرجع إلى ما كان لهم من العصبية، والتقدم على سائر بطون العرب، بهذا يعترف لهم الناس، ولا ينكرونه عليهم، حتى إنهم كانوا يستثنونهم إذا افتخروا؛ يقول قائلهم:

فأما الناس ما حاشا قريشًا فإنا نحن أفضلهم فعالا

فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما.

وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هى العصبية التى بها يكون اجتماع الكلمة، وكانت عصبية قريش قد جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها، حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها، وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه، كان من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش، ممن فيهم تلك القوة، والعصبية المجتمعة.

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلى بن أبى طالب ومن شايعه، وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله ﷺ. ولما لم يكن له من يساعده على نيل ذلك الحق الذى رآه لنفسه، أذعن لرأى الجمهور(٢).

---

(١) لمكان الكعبة ولأنهم أوسط العرب نسبًا ودارًا – المسامرة – ص ٢٥١، الطبرى جـ ٢ ص ٤٤٦ ط التجارية.

(٢) محاضرات المرحوم الشيخ الخضرى، مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٢٤ وما بعدها، الطبرى جـ ٢ ص ٤٤٦، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٤، المسامرة للكمال بن أبى شريف، تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار.

● **شكل الانتخاب:**

لم يرد فى الكتاب نص صريح يبين شكل انتخاب خليفة لرسول الله ﷺ اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها، مثل وصف المسلمين بقوله: ﴿ **وأمرُهُم شُورى بينهُم** ﴾ [الشورى:٣٨]، ومن قوله: ﴿ **واعتصِمُوا بِحبل اللهِ جَميعًا ولا تفرَّقُوا** ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقوله: ﴿ **ولا تنازعُوا فتَفشلُوا وتذهب رِيحُكُم** ﴾ [الأنفال:٤٦].

كذلك لم يرد عن النبى ﷺ أنه أوصى بالخلافة لأحد من بعده، كما لم يرد عنه بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق؛ كأن الشريعة أرادت أن تكل الأمر للمسلمين يختارون من نظم الحكم ما يلائم أحوالهم؛ ويتمشى مع تطور حياتهم؛ إذ إن الأحوال تتغير والمجتمعات تتطور، وما يصلح اليوم قد لا يصلح غدا؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده، وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما.

ومن ثم كان التشريع الإسلامى فى هذه الناحية - كما فى غيرها - فى أسمى مراتب الكمال. وهاك طرائقهم فى الانتخاب.

الطريقة الأولى:

طريقة الانتخاب الاستشارية؛ وقد كانت فى انتخاب أبى بكر حيث اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة، ورشحوا للخلافة سعد بن عبادة سيد الخزرج، وسمع بذلك بعض المهاجرين؛ فأسرع إليهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وحصل بين الفريقين حوار وجدل، وكان مما احتج به المهاجرون.

١ - أن النبى ﷺ أوصى بكم خيراً؛ ولو كانت الإمامة فيكم لم تكن الوصاة بكم.

٢ - وأنه ﷺ قال: «الأئمة من قريش».

٣ - وأنه صلوات الله عليه قد رضى أبا بكر لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؛ فإن النبى ﷺ لما اشتد عليه المرض قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وأخيرا بايع المجتمعون أبا بكر، وفى اليوم التالى بايعه المسلمون البيعة العامة عن رضى واختيار.

وبهذه البيعة أكد أبو بكر قضاء الإسلام على التحكم الفردى فى توريث العروش، كما كان متبعاً فى الكسروية والقيصرية.

الطريقة الثانية:

طريقة العهد وهى: أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده؛ فقد رأى أبو بكر أن يعهد إلى رجل من المسلمين يكون رضى فيهم، تتوفر فيه التقوى والكفاية، والقدرة على الاضطلاع بمهام الدولة، حتى يوفر على الأمة ما عساه أن يحدث من اختلاف يهددهم بالفرقة والانقسام، كما كاد أن يحدث عقب وفاة النبى ﷺ؛ فوقع اختياره على عمر رضي الله عنه، ولكنه رأى أنه ليس من حقه أن يستبد برأيه فى اختيار من يقوم بأمر المسلمين من بعده؛ فاستشار كبار الصحابة فوافقوا على اختياره، وكتب عهداً بذلك؛ وقد وافق المسلمون على هذا الاختيار.

وبذلك نرى أن خلافة عمر كانت:

١ – بترشيح الخليفة القائم.

٢ – باستشارة أهل الحل والعقد [١].

٣ – بموافقة العامة ورضاهم على ما اتفق عليه أهل الحل والعقد.

الطريقة الثالثة:

طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود، وهى الطريقة التى انتخب بها عثمان بن عفان؛ فإن عمر لما طعن، وأحس بدنو أجله خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة، لئلا يتنازعوا ويختلفوا، ولم يكن أمامه من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله؛ فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حيا وميتا، فاختار ستة من الصحابة، وممن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم، وهم على، وعثمان، وسعد بن

---

(١) أهل الحل والعقد هم النخبة الناضجة الواعية، ذوو الكفاية الممتازة فى علمهم ومعرفتهم، الذين تثق بهم الأمة، وتتبعهم فيما يقررونه بشأن الدين والدنيا. وتعريفهم وما يجب أن يتوافر فيهم من شروط مذكور فى مواضعه.

أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وجعل ابنه عبد الله معهم على أن يؤخذ رأيه فقط، وليس له من الأمر شيء؛ حتى لا يقال إن عمر ورثها بنيه، ووضع لهم نظاما ينتخبون به الخليفة من بينهم؛ فقد أمر أن يجتمع هؤلاء الستة، ويختاروا الخليفة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام، وجعل للأغلبية الرأى النافذ المقبول، وإذا تساوت الأصوات كان الفريق الذي فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحا، وبعد مشاورات اختير عثمان، ووافقت الأمة على اختياره؛ وبذلك أصبح خليفة باتفاق الجميع.

● **اختيار على:**

كان لبعض المسلمين مآخذ على حكم عثمان، ثم انتهى الأمر بالثورة عليه وقتله بيد الثوار، وقد رغب هؤلاء الثوار فى مبايعة على فأبى، ثم قبل وبايعه أكثر من فى المدينة من المسلمين، وبذلك تمت بيعته (١).

وبهذا يتبين أن تولية الخلفاء الراشدين كانت بمبايعة المسلمين وباستشارتهم.

ومما يلفت النظر أن الخلفاء الأربعة لم يكونوا من بطن واحد من بطون قريش، بل كانوا من بطون مختلفة؛ فكان أبو بكر من بنى تيم، وعمر من بنى عدى، وعثمان وعلى من بنى عبد مناف.

وكان الخليفة بعد أن تتم البيعة له يخطب المسلمين خطبة يبين فيها منهجه الذى اعتزم أن يسير عليه فى سياسته للمسلمين. ونذكر على سبيل المثال خطبة الخليفة الأول؛ فإنه بعد أن حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله قال: «أما بعد أيها الناس فإنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله؛ فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله تعالى بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» (٢).

---

(١) خرج عليه معاوية، وطالب بدم عثمان، كما خرج عليه، طلحة، والزبير، وعائشة، فاضطرب أمر المسلمين، وكانت حروب بينه وبين من خرج عليه انتهت بقتله كرم الله وجهه.

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٤٥٠.

ولما قتل على وصفا الجو لمعاوية تغير نظام الشورى الذى كان أساس انتخاب الخلفاء لراشدين، وتحولت الخلافة إلى ملك يؤول إلى صاحبه بالقوة والسياسة؛ وبذلك ظهر نظام التوريث؛ فكان الخليفة يعين ولى عهده، ويأخذ البيعة له من وجوه الناس، وكبار القواد فى حضرته.

كما كانت تؤخذ البيعة له فى الأقاليم، بحضور الوالى نيابة عن الخليفة، وسار الأمر على ذلك فى عهد الأمويين، والعباسيين، ومن بعدهم؛ فحرموا المسلمين من هذا الحق الذى جاء به القرآن، وأيدته الأحاديث النبوية. وغلَوا فى ذلك حتى كانوا يولون عهدهم اثنين بل وثلاثة.

وهذه الطريقة كما يقول السيد أمير على: «قد جمعت فى نفسها كلا من النظام الديمقراطى، ونظام الحكم المطلق فى آن واحد، مع تجردها من مزايا كل منهما؛ إذ كانت البيعة تتم بأى طريقة سواء أكانت بالوعيد أو الوعود الخلابة، ويصبح الانتخاب على كل حال شرعيا [1]».

• الشورى فى تصرف الخلفاء الراشدين

كذلك نلحظ الشورى واضحة فى تصرف الخلفاء الراشدين فيما كان يجد من أمور ليس فيها نص من كتاب ولا سنة.

استشار أبو بكر رضى الله عنه أصحاب رسول الله ﷺ، فى ميراث الجدة حينما جاءته تطلب ميراثها، فقال: لا أجد لك فى كتاب الله شيئًا، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا. ثم سأل الناس؛ فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال: هل معك أحد، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها[2].

واستشار الصحابة حينما عزم على أن يعهد بالخلافة إلى عمر رضى الله عنهما.

---

(١) النظم الإسلامية للأستاذين الدكتور حسن إبراهيم والأستاذ على إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم.

(٢) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣.

واستشار عمر رضى الله عنه فى حد شارب الخمر، وجعله ثمانين جلدة، بعد أن رأى على كرم الله وجه ذلك، ووافقه الصحابة على رأيه؛ روى مالك فى الموطأ: «أن عمر بن الخطاب استشار فى الخمر يشربها الرجل، فقال على بن أبى طالب: أرى أن تضربه ثمانين (كحد القذف)؛ فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى؛ فجلد عمر فى الخمر ثمانين» (١).

ولما فتح الله على المسلمين العراق والشام وغيرهما من الأقطار، كان من رأى بعض الصحابة أن تقسم هذه الأرض بين الغانمين بعد رفع الخمس، وكان رأى عمر وبعض آخر من الصحابة: أن تبقى بيد أهلها، وأن يوضع عليها الخراج، لينفق منه على مصالح المسلمين عامة، فى كل جيل وزمان، وبعد نقاش وجدال ومشاورات وافق المسلمون على رأى عمر كما قدمناه(٢).

وعثمان استشار فى حدث من أهم الأحداث فى الإسلام، وهوجمع القرآن؛ فقد قدر خطر ما سيقدم عليه، فلم يشأ أن ينفرد برأى؛ فجمع المهاجرين والأنصار، وشاورهم فى الأمر، واستقر الرأى على كتابة المصحف.

وعلى كرم الله وجهه نزل على رأى الأغلبية فى التحكيم.

وقد عقد الإمام البخارى للشورى بابًا خاصًّا فى صحيحه. ومما رواه فى ذلك: «وكانت الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور العامة؛ ليأخذوا بأسهلها؛ فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبى ﷺ».

«وكان القراء (أى العلماء) أصحاب مشورة عمر كهولا كانوا أو شبابًا، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل (٣)».

ويقول الإمام أبو يوسف: «كان يساعد الخليفة مجلس من الكبار المسنين، هم

---

(١) الموطأ ص ٣١١، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والأحكام السلطانية للماوردى ص ١٩٩.

(٢) راجع كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤ ط الأميرية.

(٣) انظر صحيح البخارى فى باب قول الله تعالى: ﴿وأمرُهُم شُورى بينهُم﴾.

أهل الشورى، وكان يتألف من كبار الصحابة، وكانت جلساته تعقد فى مسجد النبى ﷺ، وفى غالب الأحيان كان يساعد هذا المجلس أعيان المدينة، وزعماء البدو الوافدون إلى المدينة، فضلا عن أنه كان فى مقدور كل فرد ممن يحضر المسجد أن يدلى برأيه، وكان شيوخ المجلس من بين المهاجرين والأنصار» (١).

ويقول السيد أمير على: «إن الخليفة كان يستعين فى إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ، يتألف من كبار الصحابة، وأعيان المدينة، ورؤساء القبائل، وكانوا يجتمعون فى مسجد المدينة، وكان الخليفة لا يقطع أمرًا دون استشارتهم، وكان نظام الحكم فى الثلاثين سنة الأولى فى الإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهورى» (٢).

ومما تقدم نلاحظ:

١ – أن انتخاب الخلفاء الراشدين كان يتمشى مع الشورى التى جاء بها القرآن، وندبت إليها السنة النبوية، ولا أثر فيه للوراثة، كما أن تصرفاتهم كانت تخضع للشورى.

٢ – لم يحاول أحد من الخلفاء الراشدين أن يجعل الخلافة وراثية، حتى إن عمر رضى الله عنه لما رأى أن يكون ابنه عبد الله مع الستة الذين جعل الخلافة فى واحد منهم، لم يجعل له إلا المشورة فقط، وليس له من الأمر شىء.

٣ – كان الخليفة عقب انتخابه يخطب الناس مبينًا لهم منهجه فى الحكم، وسياسته التى اعتزم السير عليها.

● الخلافة ونظم الحكم الأخرى

قامت الخلافة على احترام رأى الأمة؛ وإلغاء الفوارق بين أفرادها، على هدى الإسلام وتعاليمه.

١ – وإذا لاحظنا أن انتخاب الخليفة كان يقوم على الشورى، كان نظام الخلافة

---

(١) راجع كتاب الخراج للقاضي أبى يوسف ص ٣٠ ط السلفية.

(٢) تاريخ الإسلام السياسى – للدكتور حسن إبراهيم ج ١ ص ٧٥٠، وراجع مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، للسيد أمير على، طبعة لجنة التأليف ص ٥٠.

نظاما جمهوريا، لولا أنه كان مقصوراً على البيت القرشى، وأن بقاء الخليفة فى منصبه غير مقيد بمدة محددة، كما هو الشأن فى انتخاب رئيس الجمهورية.

٢ – وإذا لاحظنا أن الخليفة غير مقيد برأى من يستشيرهم، كان نظام الخلافة يشبه نظام الملكية المطلقة، ولكن الواقع ن الخليفة كان ينزل عند رأى المسلمين فى كل أمر ليس فيه نص من كتاب أو سنة.

٣ – وإذا لاحظنا أن سلطة الخليفة كانت مقيدة بالعمل بما فى كتاب الله وسنة رسوله، كانت تشبه الملكية المقيدة.

وعلى كلٍّ، فقد كانت الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين حكومة «ديمقراطية» حقًّا؛ فالخليفة لم يكن يعتبر نفسه إلا واحداً من المسلمين، يجلس معهم ويختلط بهم، ويستطيع أى فرد منهم أن يتحدث إليه فى كل ما يريد، وكانت حياته كحياة غيره من المسلمين، فى غاية البساطة، بعيدة عن أبهة الملك ومراسمه، وكان لا يقطع رأيا دون استشارة كبار الصحابة كما بينا.

* * *

الإدارة

تأسست الدولة الإسلامية بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة واستقراره بها. وقد اتخذ الرسول صلوات الله عليه من المدينة مقرًا للدولة الإسلامية الناشئة، ووضع سياسة هذه الدولة على أسس واضحة مستقيمة محددة، وكان من أهم هذه الأسس.

١ – قيامه بتبليغ رسالة ربه، ونشرها بكل الوسائل بين العرب والناس جميعاً.

٢ – عقده معاهدة بين المسلمين واليهود، شرط لهم، واشترط عليهم ما فيه خير للجميع، وما ينظم شئون هذه الجماعة المختلطة.

٣ – أنه جعل مسجده بالمدينة الذى بناه لإقامة الصلاة مكانًا يجتمع فيه المسلمون للتشاور فى مهامهم، ومركزاً لبث الدعوة للإسلام، ومقرًا لاستقبال الوفود.

٤ – أنه كان يستشير أصحابه فيما كان يجد من أمور ليس فيها نص من القرآن الكريم.

٥ – أن دستور هذه الجماعة هو القرآن الكريم، وهو تنزيل من حكيم عليم. وفيه من النظم والتشريعات ما كان فيه الخير كل الخير للناس كافة، وما كان أساسًا، وأصلا لكل النظم التى استلزمها تطور الدولة فيما بعد. واتساع رقعتها، وتعدد دياناتها وأعرافها؛ فأحكام هذا القرآن عامة وصالحة لكل زمان ومكان، ولكل جيل وقبيل.

وبذلك وضعت الأسس الصالحة لنشأة الدولة الإسلامية وتطورها.

وفى عهد خلفائه الراشدين اتسعت الدولة. وعظم عمرانها، وازداد عددها، واختلفت عاداتها وأعرافها، وجدت أمور وأحداث لم تكن من قبل؛ فاحتاج الأمر إلى نظم تساير هذا التوسع والتطور، وتحكم تفصيلات الأسس والأصول التى وضعها النبى ﷺ، وتتفق مع المبادئ الأساسية التى قام عليها الإسلام، «وتجعل منها أداة حكومية منظمة تنظيما راقيًا دقيقا»، وتكفل لهذه الدولة الزاهرة من الثبات

والاستقرار، والقوة والحياة، والتقدم والرفاهية، ما يجعلها من أرقى وأقوى دول العالم في تلك العصور[1]، فدونت الدواوين، وبنيت الأمصار، ونظمت الجيوش، ووجد العسس، وعين الولاة، والحباة والقضاة، ونظمت موارد بيت المال ومصارفه، وغير ذلك كثير مما يتصل بحسن إدارة الدولة وتدبير أمورها، وإصلاح شئونها، كما سيتضح فيما بعد.

* * *

(١) مقدمة المراجع لترجمة كتاب الإدارة العربية للحسيني.

obeikandl.com

الـــوزارة [١]

الوزير حبأ الملك الذى يحمل ثقله، ويعينه برأيه وتدبيره [٢].

والوزارة أسمى الرتب السلطانية، واسمها يدل على مطلق الإعانة؛ فإن الوزارة مشقته إما من الوَزَر (بفتح الواو والزاى) وهو الملجأ والمعتصم، ومنه قوله تعالى ﴿ **كَلاَّ لا وزَرَ** ﴾؛ لأن الوزير يلجأ إلى رأيه وتدبيره ، أو من الوِزر (بكسر الواو) وهو الثقل؛ لأنه يزر ويحمل عن الخليفة أثقاله، ومنه قوله تعالى ﴿ **حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾ أى أثقالها، أو من الأزر وهو الظهر، لأن الخليفة يقوى بوزيره، كقوة البدن بالظهر[٣] ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي** ﴾.

صفة الوزير:

لسمو هذه الوظيفة، وعلو مرتبتها، كان الخلفاء لا يستوزرون «إلا الكامل من كتابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها، وتثق بحزمه وفضل رأيه، وصحة تدبيره فى أمورها [٤].

وقد بين الخليفة المأمون صفات الوزير التى طلب أن يكون عليها، إذ يقول فى اختيار وزير:

---

(١) الوزارة بكسر الواو وفتحها والكسر أعلى – لسان العرب، القاموس. والوظائف السلطانية فى هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما يقول العلماء وبخاصة علماء الاجتماع والسياسة الشرعية كابن خلدون، والماوردى، وابن تيمية. وليس ثمة ما يدعو إلى إعادة الكلام على الخلافة هنا فقد تكلمنا عنها قبل ذلك.

(٢) راجع لسان العرب، والقاموس، والأحكام السطانية للماوردى ص ٢٠ – والحبأ جليس الملك وخاصته.

(٣) كيف تقلبت لفظة «وزير» كانت دالة على الملجأ والثقل والمعاونة – الفخرى ص ١١١، وراجع لسان العرب، والقاموس، والأحكام السلطانية ص ٢٠، وكتب التفسير عند قوله تعالى ﴿ **اشدُد به أزري** ﴾.

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٩٤.

«إنى التمست لأمورى رجلا جامعًا لخصال الخير، ذا عفة فى خلائقه، واستقامة فى طرائقه، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء. إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه [1]».

الحاجة إلى الوزارة:

تظهر الحاجة إلى الوزارة مما قاله الله تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** ﴾ [طه: ٢٩-٣١]؛ فإذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الإمامة أجوز.

ولأن ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة، لا يقدر على مباشرة جميعه إلا باستنابة، ونيابة الوزير المشارك له فى التدبير، أصح فى تنفيذ الأمور، من تفرده بها، ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل، وأمنع من الخلل» [2].

ولأن «السلطان فى نفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا؛ فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم فى ضرورة معاشه، وسائر مهنه، فما ظنك بسياسة نوعه، ومن استراعاه الله من خلقه وعباده» [3].

---

(١) وقد جمع بعض الشعراء هذه الأوصاف فأوجزها، ووصف بها بعض وزراء الدولة العباسية فقال:

بديهته وفكرته سواء ... إذا اشتبهت على الناس الأمور
وأحزم ما يكون الدهر يوماً ... إذا أعيا المشاور والمشير
وصدر فيه للهم اتساع ... إذا ضاقت من الهم الصدور

الأحكام السلطانية ص١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٠١.

تاريخ الوزارة

الوزارة فارسية الأصل، بل قد عرفت من قبل فى بنى إسرائيل كما هو ظاهر من قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ .

الوزارة فى عهد النبى ﷺ :

إذا كان الغرض من الوزارة المعاونة والمؤازرة، فهى كانت موجودة فى زمن النبى ﷺ ؛ فإنه كان يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول، وأحوالها، فى كسرى، وقيصر، والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره » (١) .

الوزارة فى عهد الخلفاء الراشدين :

كان أبو بكر يستشير الصحابة ويستعين بهم؛ فجعل إلى عمر القضاء وتوزيع الصدقات، كما أسند إلى على الإشراف على أسرى الحرب وشئونهم، وكذلك كان عمر يستشير الصحابة، ويخص عليا، وعثمان ببعض الأمور، ويستعين بهما فى كثير من الشئون، وكان شأن عثمان وعلى ذلك أيضاً .

ومع ذلك فلم يكن للمسلمين وزير متعين المرتبة للوزارة، لبعد الإسلام عن مظاهر الملك .

الوزارة فى عهد الأمويين :

وفى عهد الأمويين صارت الخلافة ملكا يقوم على السياسة والدهاء، واحتاج خلفاؤهم إلى من يستشيرونه، ويستعينون به فى سياسة دولتهم، ومهام أمورهم؛ فاختاروا بعض البارزين من ذوى الرأى والسياسة ليقوموا بمثل هذا الغرض؛ فكانوا يقومون بمهام الوزراء، وإن لم يطلق عليهم هذا اللقب، بل إن ملوكهم كانوا ينكرون ذلك؛ يقول المسعودى: « وكانت ملوك بنى أمية تنكر أن تخاطب كاتبا لها بالوزارة، وتقول: الوزير مشتق من الوزارة، والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة » (٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٤، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٤١١ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٩٤ .

الوزارة فى عهد العباسيين :

يقول صاحب الفخرى : « والوزارة لم تتمهد قواعدها، وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس؛ فأما ما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشارى ذوى الحجا، والآراء الصائبة، فكل منهم يجرى مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس، تقررت قوانين الوزارة،وسمى الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً »[١] .

ويقول ابن خلدون : « ولما جاءت دولة بنى العباس، واستفحل الملك . وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته فى الدولة وعنت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند؛ فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه » ، ثم جعل له النظر فى المكاتبات لصون أسرار الخليفة، « فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم، وسائر معانى الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى البرمكى بالسلطان فى أيام الرشيد، وذلك إشارة إلى عموم نظره، وقيامه بالدولة . . .)[٢] .

وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى، هو حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال مولى بنى الحارث بن كعب؛ استوزره السفاح، وفوض الأمور إليه، وسلم إليه الدواوين[٣]، ولقب وزير آل محمد، وقد ركن الخلفاء العباسيون إلى الوزراء، وسلموا إليهم أمور الدولة، وأشهر وزرائهم البرامكة الذين استفحل أمرهم، واتجه نظر الناس إليهم، حتى اضطر الرشيد إلى الفتك بهم .

وفى أواخر الدولة العباسية تقلص نفوذ الوزراء بتقلص نفوذ الخلفاء، حتى استبد العمال فى الأعمال، واستقلوا بالسلطان؛ فأصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى، فأسقطوها، وأبدلوا بها إمرة الأمراء .

---

(١) الفخرى لابن الطقطقى ص١١١ .

(٢) المقدمة جـ٢ ص٦٠٦،٦٠٧ .

(٣) صبح الأعشى جـ١ ص٩٣ .

أمير الأمراء :

هو لقب منحه الخلفاء العباسيون أمراء الدول الإسلامية الصغرى، التى تفرعت عن الدولة العباسية، فى القرن الرابع الهجرى وما بعده، من بنى حمدان وبنى بويه .

وأول من لقب به ابن رائق الحمدانى، وكان أمير البصرة وواسط، فجعله الراضى أمير الأمراء سنة ٣٢٤ هـ، وفوض إليه تدبير المملكة . وأمر أن يخطب له على المنابر، وخلع عليه، وأعطاه اللواء . وكانوا يسمونه أيضا ملك بغداد .أو سلطان بغداد .

وما زال هذا اللقب فى بنى بويه إلى سنة ٤٤٩ هـ ؛ فانتقل إلى السلاجقة الأتراك. وأولهم طغرل بك . وكان خلفه ألب أرسلان من أعظم ملوك زمانه، وظل هذا اللقب فى السلاجقة إلى سنة ٥٤٧ هـ، وسقط بسقوط دولتهم فى بغداد .

الوزارة فى الأندلس :

يقول ابن خلدون : « وأما دولة بنى أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافا، وأفردوا لكل صنف وزيراً؛ فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك، كل فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم؛ فارتفعت خطة الحاجب، ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها، فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب » (١) .

الوزارة فى دولة الترك بالمشرق :

وأما فى دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذى يقف بالناس على حدود الآداب فى اللقاء، والتحية فى مجالس السلطان، والتقدم بالوفود بين يديه « بالدويدار » (وهو يشبه كبير الأمناء فى زماننا)، ويضيفون إليه استتباع كاتب السر، وأصحاب البريد المتصرفين فى حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة » (٢) .

---

(١) المقدمة جـ٢ ص٦٠٨، ٦٠٩ .

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦٠٩ .

نوعا الوزارة.

يقول العلامة ابن خلدون: « .... ثم جاء فى الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة، والسلطان أخرى . . » [١] فانقسمت الوزارة حينئذ إلى :

١- وزارة تنفيذ : وهى حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه .

٢- وإلى وزارة تفويض : وهى حال ما يكون الوزير مستبدا عليه [٢] .

ووزير التنفيذ وسط بين الإمام، « وبين الرعايا والولاة، يؤدى عنه ما أمر، وينفذ عنه ما ذكر، ويمضى ما حكم، ويخبر بتقيد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وتجدد من حدث ملم، ليعمل فيه ما يؤمر به؛ فهو معين فى تنفيذ الأمور، وليس بوال عليها، ولا متقلد لها؛ فإن شورك فى الرأى كان باسم الوزارة أخص، وإن لم يشارك فيه كان باسم الواسطة والسفارة أشبه » [٣] .

ولا يشترط لتعيينه تقليد، أو عقد، أو صيغة معينة، وإنما يكفى فيها مجرد الإذن .

ووزير التفويض هو : من استوزره الإمام، وفوض إليه تدبير الأمور برأيه، وإمضائها على اجتهاده دون الرجوع إليه؛ فالوزير هنا ذو ولاية عامة، وليس مجرد وسيط .

شروط من تقلدها :

يشترط فى تقليد هذه الوزارة ما يشترط فى الإمامة إلا النسب وحده، وهو شرط فيه خلاف فى الإمامة نفسها .

طريقة تعيينه :

لا يكفى هنا مجرد الإذن، بل لا تنعقد إلا بعقد وصيغة معينة؛ فهى ولاية تفتقر

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٦٠٧ .
(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦٠٧ .
(٣) الأحكام السلطانية ص٢١ .

إلى عقد، والعقود لا تصح إلا بالقول الصريح؛ فتكون بلفظ يشتمل على شرطين :

أحدهما : عموم النظر .

والثانى : النيابة .

فإن اقتصر على عموم النظر دون النيابة، فكان بولاية العهد أخص، فلم تنعقد به الوزارة، وإن اقتصر به على النيابة، فقد أبهم ما استنابه فيه من عموم وخصوص، أو تنفيذ وتفويض؛ فلم تنعقد به الوزارة، وإذا جمع بينهما انعقدت .

سلطاته :

كل ما صح من الإمام صح من الوزير إلا ثلاثة أشياء :

١- للإمام أن يعهد بولاية العهد إلى من يرى، وليس ذلك للوزير .

٢- للإمام أن يستعفى الأمة من الإمامة، وليس ذلك للوزير .

٣- للإمام أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام .

وما عدا هذه الثلاثة فحكم التفويض إليه يقتضى جواز فعله، وصحة نفوذه منه .

الفرق بينها وبين الإمامة :

النظر فيها وإن كان على العموم معتبر بشرطين يقع الفرق بهما بين الإمامة والوزارة :

أحدهما : يختص بالوزير وهو مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير . وأنفذه من ولاية وتقليد، لئلا يصير بالاستبداد كالإمام .

والثانى : مختص بالإمام وهو أن يتصفح أفعال الوزير . وتدبيره الأمور، ليقر منها ما وافق الصواب، ويستدرك ما خالفه؛ لأن تدبير الأمة إليه موكول، وعلى اجتهاده محمول .

تعدد الوزراء :

يجوز للخليفة أن يقلد وزيرى تنفيذ على اجتماع وانفراد .

ولا يجوز له أن يقلد وزيرى تفويض على الاجتماع . لعموم ولايتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين؛ لأنهما ربما تعارضا فى الحل والعقد . والتقليد والعزل، وقد قال الله تعالى ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ .

ويجوز له أن يقلد وزيرين: وزير تفويض، ووزير تنفيذ؛ فيكون وزير التفويض مطلق التصرف، ووزير التنفيذ مقصوراً على تنفيذ ما وردت به أوامر الخليفة .

تفويض الخليفة لولاة الأقاليم :

وإذا فوض الخليفة تدبير الأقاليم إلى ولاتها، ووكل النظر فيها إلى المسئولين عليها، جاز لمالك كل إقليم أن يستوزر، وكان حكم وزيره معه كحكم وزير الخليفة مع الخليفة فى اعتبار الوزارتين وأحكام النظرين [1] .

* * *

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردى ص١٨ وما بعدها .

obeikandl.com

الحجابة

الحجابة فى عهد الخلفاء الراشدين :

الحاجب هو الذى يتولى الإذن للناس فى الدخول على السلطان، وكان الخلفاء الراشدون لا يحجبون أحداً عن أبوابهم؛ فالخليفة لم يكن يعتبر نفسه إلا واحداً من المسلمين؛ فكان الفقير والغنى، والضعيف والقوى يجلسون مع الخلفاء، ويكلمونهم فى حوائجهم، ويتحدثون إليهم فى كل ما يريدون .

الحجابة فى الدولة الأموية :

ولما انتقل الأمر إلى بنى أمية، اتخذ معاوية، ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب، بعد حادثة الخوارج التى قتل فيها على كرم الله وجهه؛ وذلك خوفا من أن يصيبهم ما أصابه من الاغتيال، وتلافيا لازدحام الناس على أبوابهم، وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة؛ يقول ابن خلدون: « وأما مدافعة ذوى الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه؛ فلما انقلبت الخلافة إلى الملك، وجاءت رسوم السلطان وألقابه، كان أول شيء بدئ به فى الدولة شأن الباب، وسده دون الجمهور، بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر، وعلى، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وغيرهم، مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم، وشغلهم بهم عن المهمات؛ فاتخذوا من يقوم لهم بذلك،وسموه الحاجب »[1] .

وكان الحاجب يشغل منصبا رفيعا فى الدولة؛ فقد « كان مخصوصا فى زمن الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابه دونهم، ويفتحه لهم على قدَره[2] فى مواقيته » مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم، فهو يشبه منصب (التشريفاتى) فى أيامنا، ومع ذلك فإن الخلفاء ما كانوا يحجبون أبوابهم عن

---

(١) المقدمة جـ٢ ص٦٠٥ .

(٢) قدره بفتح الدال أى على وفق الوقت الذى يقدره ويعينه لهم، ومن هذا قوله تعالى ﴿ فلبثت سنين في أهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قدرٍ يَا مُوسَى ﴾ .

كل الناس، ولا فى كل الأوقات، وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له: «قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعى الله، وصاحب البريد، فأمرٌ ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد» (١).

وكانوا يتخيرون صاحب هذه الخطة من أفضل رجالهم، لأهمية عمله بالنسبة لدولتهم، فنرى عبد الملك بن مروان يوصى أخاه عبد العزيز حين مضى إلى مصر أميراً عليها؛ فيقول له:« . . . . وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك؛ فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه؛ لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده . .» (٢).

الحجابة فى الدولة العباسية :

ولما جاءت الدولة العباسية، وقد بلغت من العز والترف ما بلغت، حجبوا العامة عن الخليفة؛ فأصبح لهم حجاب آخر أخص من الأول، وهذا الحجاب الثانى يفضى إلى مجالس الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من العامة، وصار بباب الخليفة داران: دار الخاصة، ودار العامة، يقابل كل فئة فى مكان معين، على ما يراه الحجاب: ثم تطرقوا عند انحطاط دولتهم، ومحاولة الحجر على صاحب الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين (٣).

وقد علت منزلة الحاجب فى أيامهم بارتقاء الحضارة الإسلامية، فأصبح يستشار فى كثير من مهام الدولة، وغدا له نفوذ فى توجيه سياستها؛ فقد استطاع الفضل بن الربيع أن يوقع بالبرامكة عند الرشيد، كما كان له أثر ظاهر فى إحداث الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون؛ فقد أغرى الأمين على العهد لابنه، وخلع أخيه المأمون من ولاية العهد، بل كثيراً ما كان يستبد بالنفوذ دون الوزير، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه فى كل أمور الدولة، وممن استبد منهم بالنفوذ محمد بن ياقوت. يقول مسكويه فى كتابه تجارب الأمم: «غلب محمد بن ياقوت على تدبير الأمور، ونظره فى جباية الأموال، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه، وتفرده بما يعمله الوزراء» (٤).

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٥ .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٩٢ .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٨٨، ٦٨٩ .

(٤) كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله – ومحمد بن ياقوت كان حاجباً للخليفة القاهر، ثم للخليفة الراضى من بعده – التنبيه للمسعودى ص٣٦٦، ٣٢٧ .

الحجابة فى الدولة الأموية بالأندلس :

كانت «الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم، فكانت فى دولتهم رفيعة غاية، كما تراه فى أخبارهم، كابن حديد وغيره من حجابهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبى عامر وأبناؤه كذلك، ولما بدأوا فى مظاهر الملك وأطواره، جاء مَن بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونها شرفا لهم، وكان أعظمهم ملكا بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب، وذى الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة،وبذى الوزارتين على جمعه لخطتى السيف والقلم» (١) .

الحجابة فى أفريقية ومصر :

«لم يكن فى دول الغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم، للبداوة التى كانت فيهم، وربما يوجد فى دولة العُبيديين بمصر عند استعظامها، وحضارتها، إلا أنه قليل (٢) .

الحجابة فى عهد المماليك :

وفى عهد المماليك لم تقتصر مهمة الحاجب على إدخال الناس على السلطان، بل تجاوزتها إلى الفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود، ثم اتسعت سلطته تدريجيا، حتى يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر طبقا لأحكام السياسة التى وضعها جنكيزخان (٣) .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٩ . (٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦١٠ .
(٣) الخطط للمقريزى جـ٢ ص٢٢٠،٢٢١ .

الكتابة

العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة منهم حين ظهور الإسلام إلا قليل، لا يتجاوز بضعة عشر رجلا، من بينهم عمر وعثمان، وعلى، وطلحة، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سفيان، وابناه معاوية ويزيد [١] .

وكان عثمان، وعلى، وأبى بن كعب [٢]، وزيد بن ثابت ممن يكتبون للنبى ﷺ القرآن الكريم، والرسائل التى كان يرسلها إلى الملوك والأمراء، وبعضهم كان يكتب له حوائجه [٣] .

ولما تولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة اتخذ عثمان كاتبا له [٤]، يكتب إلى العمال والقواد، وغدت الكتابة منصبا ذا أهمية للدولة .

وحين تولى عمر الخلافة كتب له زيد بن ثابت ثم غيره، وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية، ودونت الدواوين، ظهرت الحاجة الماسة للكتابة؛ فعين رضى الله عنه «كاتبا لكل ولاية يكتب فى ديوانها،وكان الكاتب يكتب فى أول الأمر لديوان الجند، وبيت المال؛ فتولى عثمان وعلى [٥] وانقضت دولة الخلفاء، والكتابة منحصرة فى واحد يضبط حساب الديوان من أعطيات الجند وأسمائهم، ويكتب المراسلات، وربما كانا اثنين، ويتولى الثانى كتابة بيت المال» [٦] .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٧٧ ، قصة الحضارة للمؤرخ ول .ديورانت جـ٢ ص٢١ من المجلد الرابع .

(٢) قيل إنه أول من كتب للنبى ﷺ – الطبرى جـ٢ ص٤٢ ، فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٧٨ ، تاريخ أبى الفداء جـ١ ص١٥٤ .

(٣) راجع التنبيه والإشراف للبلاذرى ص٢٤٥ ففيه بيان لكتاب النبى ﷺ ، وما كان يقوم به كل واحد منهم، وذكر صاحب صبح الأعشى : أنه رأى فى سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبى ﷺ نيف وثلاثون كاتباً جـ١ ص٩٢ .

(٤) هو الذى كتب عهد عمر بالخلافة عن أبى بكر رضى الله عنه – صبح الأعشى جـ١ ص٩٢ .

(٥) اتخذ عثمان رضى الله عنه مروان بن الحكم كاتباً له، كما اتخذ على كرم الله وجهه عبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ كاتباً . صبح الأعشى جـ١ ص٩٢، الجهشيارى ص١٢، ١٤ .

(٦) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية، وتعددت مصالح الدولة، تعدد الكتاب وصاروا خمسة :

١- كاتب الرسائل، يخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم .

٢- كاتب الخراج، يدون حساب الخراج، داخله وخارجه .

٣- كاتب الجند، يقيد أسماء الأجناد، وطبقاتهم، وأعطياتهم، ونفقات الأسلحة وغير ذلك .

٤- كاتب الشرطة، يكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد [١] والديات وغيرها .

٥- كاتب القاضى، يكتب الشروط والأحكام .

وأهم هؤلاء الكتاب فى المرتبة وأقدمهم، هو كاتب الرسائل، وقد يسمى كاتب السر، وهو يد الخليفة ومستودع سره . ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولونه إلا أقرباءهم وخاصتهم، كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم، وخلوص أسرارهم . وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين .

وفى أيامهم كانت هذه الرتبة رفيعة المنزلة، وكان الكاتب ينفرد بالأمر دون الخليفة؛ فكان يصدر السجلات، ويكتب فى آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السلطان، ثم صارت الكتابة إلى وزرائهم، وكان الوزير يجلس بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص والشكاوى المرفوعة إليه [٢] .

وأول من وقع على الرقاع، والقصص بين يدى الخليفة، جعفر بن يحيى البرمكى، لما أطلق الرشيد يده فى أمور الدولة ومقاليدها، ثم تتابع الوزراء من بعده على ذلك، وقد يوقع السلطان بنفسه على هذه الرقاع إذا كان مستبدا بأمره، قائما على نفسه [٣] .

---

(١) القواد بكسر القاف جمع قود وهو القصاص .

(٢) يقول «ابن خلدون» ج٢ ص٦١٩ : «ومن خطط الكتابة التوقيع؛ وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها، والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه» .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٨، تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

وقد ذخر العصر العباسى الأول بكثير من الكتاب المبرزين، ممن لم يسمح الدهر بمثلهم، مثل الربيع بن يونس فى عهد المنصور، ويحيى بن خالد البرمكى، وابنيه الفضل وجعفر، والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد، والفضل والحسن ابنى سهل، وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون، ومحمد بن عبد الملك الزيات فى عهد المعتصم، وابنه الواثق .

« وفى أخريات دولة بنى العباس استقلت الكتابة، وعهد فيها إلى غير الوزراء، وكانوا ببغداد لهم كتاب الإنشاء، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء ... أو كاتب السر، وكل أمور هذا الديوان إلى الوزير . وكانوا يسمونه أيضا الديوان العزيز، وهو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية فى هذه الأيام » (١) .

ولسمو هذه المرتبة كان صاحبها « لا يتخير إلا من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم . وزيادة العلم وعارضة البلاغة (٢) » . وأحسن من استوعب الصفات والشروط التى يجب أن تتوافر فى أهل صناعة الكتابة، عبد الحميد الكاتب فى رسالته الشهيرة إلى الكتاب، وقد ذكرها بنصها العلامة ابن خلدون (٣)، ومما جاء فيها قوله : « فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض . ثم العربية؛ فإنها ثقاف (٤) ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، واروا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم » (٥) .

وكان الكاتب فى الدولة الطولونية يقوم بأعمال الوزير . إذ لم تعرف الوزارة فى مصر قبل الدولة الإخشيدية .

وفى عهد الفاطميين كانت الكتابة تلى الوزارة فى الرتبة؛ ولذا فقد كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن يأنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور، وكان الكاتب يقوم بعمل الوزير إذا رأى الخليفة الاستغناء عنه .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .
(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٩ .
(٣) المصدر السابق جـ٢ ص٦٢٠ - ٦٢٥ .
(٤) ثقاف ككتاب، ما تسوى به الرماح - القاموس .
(٥) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٢١ .

تدوين الدواوين

الديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال [١] .

وهو فارسي معرب [٢]، وفي تسميته ديواناً وجهان :

أحدهما : أن كسرى اطلع ذات يوم على كُتَّاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم كأنهم يحادثون؛ فقال : ديوانه [٣] (أى مجانين) فسمى موضعهم بذلك، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبان .

والثاني : أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين . فسمى الكُتَّاب باسمهم لحذقهم بالأمور، ووقوفهم على الجلى منها والخفى، وجمعهم لما شد وتفرق، ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل : ديوان [٤] .

« وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كُتَّاب الرسائل، ومكان جلوسهم بباب السلطان . وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر فى سائر هذه الأعمال، وقد يفرد كل صنف منها بناظر على حسب مصطلح الدولة » [٥] .

بدء تدوين الدواوين :

لم يكن على عهد رسول الله ﷺ ، وعهد أبى بكر رضي الله عنه ديوان لإحصاء

---

(١) الأحكام السلطانية ص١٧٥ . وقال ابن الأثير: هو الدفتر الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء – لسان العرب .

(٢) وقيل إنه عربى ومعناه، الأصل الذى يرجع إليه، ويعمل بما فيه، ومنه قول ابن عباس « إذا سألتمونى عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب » صبح الأعشى ج١ ص٩٠ .

(٣) ديوانه أى مجانين بلغة الفرس، وحذفت الهاء من ديوانه تخفيفا لكثرة الاستعمال، فقيل: ديوان . مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٣ .

(٤) الأحكام السلطانية ص١٧٥، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٣ .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٣ .

الأموال وضبط العطاء ، فلما كان زمن عمر رضى الله عنه كثر المال، واتسعت البلاد، وكثر الناس؛ فدونت الدواوين لوجود الدواعى؛ فكان رضوان الله عليه أول من وضع الدواوين فى الدولة الإسلامية .

واختلف الناس فى سبب وضعه له؛ فقال قوم :

سببه أن أبا هريرة رضى الله عنه قدم عليه بمال من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به ؟ فقال : خمسمائة ألف درهم؛ فاستكثره عمر؛ فقال له : أتدرى ما تقول؟ قال : نعم، مائة ألف خمس مرات؛ فقال عمر: أطيب هو؟ قال : لا أعلم إلا ذاك؛ فصعد عمر المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس قد جاءنا مال كثير؛ فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا؛ فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديواناً لهم، فدون أنت لنا ديوانا .

وقال آخرون : بل سببه أن عمر بعث بعثا، وكان عنده الهرمزان، فقال عمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل، وأخل بمكانه، فمن أين يعلم صاحبك به؛ فأثبت لهم ديوانا، فسأله عن لديوان حتى فسره له .

وقال جماعة : بل سببه مال أتى به أبو هريرة من البحرين، فاستكثروه، وتعبوا فى قسمه، فسموا إلى إحصاء الأموال، وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان، وقال : رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر(٢) .

ولعل هذه الرواية الأخيرة أوضح فى سبب التدوين، ويرشحها ما ذكره ابن تيمية إذ يقول : « ولم يكن للأموال المقبضة والمقسومة ديوان جامع على عهد

---

(١) وجد مبدأ إحصاء الناس وكتابتهم على عهد رسول الله ﷺ ، كما وجد فى عهده صلوات الله عليه كتابة الجند الذين أعدوا للغزو فى سبيل الله؛ فقد أخرج البخارى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل ... » ، وأخرج أيضا بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى كتبت فى غزوة كذا وكذا، وامرأتى حاجة، قال : ارجع فحج مع امرأتك » وراجعه فى باب كتابة الإمام للناس، وفى باب من اكتتب فى جيش خرجت امرأته حاجة، وفى باب الحج .

وظاهر أن الكتابة التى كانت فى زمن النبى ﷺ لم ترتفع إلى مستوى التدوين الذى حصل فى زمن عمر رضى الله عنه .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦١٤ .

رسول الله ﷺ، وأبى بكر رضى الله عنه، بل كان يقسم المال شيئا فشيئا؛ فلما كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كثر المال، واتسعت البلاد، وكثر الناس، فجعل ديوان العطاء للمقاتلة وغيرهم» [١] ولما استقر رأى عمر على تدوين الديوان دعا عقيل ابن أبى طالب، ومخرمة بن نوفل،وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش وكتابها، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم؛ فكتبوهم على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ ، وما بعدها الأقرب فالأقرب، ثم روعى فى التفضيل عند انقراض أهل السوابق، التقدم فى الشجاعة والبلاء فى الجهاد [٢] .

وفرض العطاء للناس جميعا حتى للأطفال فقد أمر رضى الله عنه مناديه «ألا لا تعجلوا أولادكم بالفطام، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام؛ ففرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتى درهم، فإذا بلغ زاده» [٣] .

ومن هذا يتبين أن هذا الديوان كتب بادئ بدء بالعربية، كما أنه كان يضم الجند وأهل الأعطيات حتى الأطفال، وتلك هى الحادثة الأولى فى تاريخ العالم، حيث اضطلعت الحكومة بمسئولية إطعام سكان الدولة وكسوتهم» [٤] .

هكذا كان تدوين الديوان فى ابتداء وضعه، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢٠ هـ [٥] وقيل كان ذلك سنة ١٥ هـ [٦] .

وبقى ديوان الخراج والجبايات بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل: ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية. وكتاب الدواوين من أهل الذمة من الفريقين [٧] .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص٤٢ ، وراجع الفخرى فى الآداب السلطانية، ص٦٠ ففيه كلام قيم .

(٢) الخراج للإمام أبى يوسف ص١٥، ٢٦، الأحكام السلطانية ص١٧٥٥، فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٥٨، الطبرى جـ٣ ص٢٧٨ – ط التجارية، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص٨٨، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٤ .

(٣) الأحكام السلطانية ص ١٧٨ .

(٤) المصدر السابق، والإدارة العربية للحسينى ص١١٦ .

(٥) البلاذرى ص٤٥٥، ٤٦٢، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٤ .

(٦) راجع الطبرى جـ٣ ص١٠٨، الفخرى فى الآداب السلطانية ص٦٠، تاريخ أبى الفداء جـ١ ص١٦٠ .

(٧) الأحكام السلطانية ص١٧٨، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٤ .

الدواوين فى عهد الأمويين :

تعددت الدواوين فى عهد الدولة الأموية، وصارت خمسة دواوين رئيسية [١] وهى :

١- ديوان الجند . ٢- ديوان الخراج .

٣- ديوان الرسائل . ٤- ديوان الخاتم .

٥- ديوان البريد .

فأما ديوان الجند فهو الذى يحصر جند كل إمارة وأعطياتهم [٢] وكل ما يختص بهم؛ فهو يشبه ديوان وزارة الحربية . وهذا الديوان منذ وضع كان بالعربية.

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل وخرج؛ فهو يشبه ديوان وزارة المالية .

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال، والإشراف على ما يرد منهم من رسائل فى الإمارات المختلفة، وكان بالعربية طبعا .

وديوان الخاتم، هو الديوان الذى كان يقوم بأنظمة الدولة، وهو ديوان «به نواب؛ فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان، وأثبتت نسخته فيه، وخزم بخيط، وختم بشمع [٣]»، وختم بختم ذلك الديوان: وهو يشبه قلم (الأرشيف) أو السجلات .

---

(١) كان هناك إلى جانب هذه الدواوين الرئيسية دواوين أخرى أقل أهمية، منها: ديوان المستغلات أى ما يجبى لبيت المال من أسواق، أو منازل، أو طواحين ابتناها الناس فى أرض الدولة فيؤدون عنها خرجا - راجع ابن حوقل، وقد أنشئ فى مصر ديوان للأوقاف والأحباس فى سنة ١١٨ هـ فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمى، وكانت الأحباس قبله فى أيدى أهلها، وفى أيدى أوصيائهم، فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيما - القضاء فى مصر للأستاذ عطية مشرفة ص١٧٢، ١٧٣ .

(٢) العطاء يجمع على أعطية (بفتح الهمزه) وجمع الجمع أعطيات - لسان العرب .

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٧٩ .

وكان الذى حمل معاوية على اختراع هذا الديوان، أنه أحال عمر بن الزبير على زياد ابن أبيه أمير العراق بمائة ألف درهم؛ فمضى عمر، وقرأ الكتاب، وكانت تواقيعهم تصدر غير مختومة فجعل المائة مائتين؛ فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر عليه ذلك وقال: ما أحلته إلا بمائة ألف، وطلب بها عمر، وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله ، واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وولاه عبيد الله بن أوس الغسانى؛ فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدرى أحد ما فيها، ولا يتمكن أحد من تغييرها (١) .

وكان ديوان الخاتم من أكبر الدواوين منذ أن أنشأه معاوية إلى أواسط دولة بنى العباس؛ فأسقط لتحول الأعمال إلى الوزراء والسلاطين (٢) .

على أن ختم الرسائل كان معروفاً فى زمن النبى ﷺ ، فقد ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر فقيل له: إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، ونقش فيه «محمد رسول الله» وتختم به أبو بكر، وعمر، وعثمان، ثم سقط من يده فى بئر أريس (٣) .

وكان لديوان البريد أهمية عظمى للدولة كما سيتبين فيما بعد .

تعريب الدواوين :

«لما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر، ملكا، وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان؛ فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنة من يوم ابتدائه»، وأتى به إلى

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٧٩، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٤٥، تاريخ الخلفاء لسيوطى ص١٣٤ .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٧٩ .

(٣) الطبرى جـ٣ ص٢٧٧، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٤٣، وعمر رضى الله عنه هو أول من ختم بالطين كما فى الطبرى جـ٣ ص٧٧، وكان هذا الطين صبغه أحمر، وكان فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم، وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه كان مخصوصاً بها . مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٤٥ .

عبد الملك فدعا سرجون كاتبه، فعرضه عليه فغمه، وخرج كئيباً، فلقيه قوم من كتاب الروم، فقال لهم: «اطلبوا المعيشة فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم»، وكان ذلك سنة ٨١ هـ[١].

وأما ديوان العراق فإن الحجاج أمر كاتبه صالح بن عبد الرحمن – وكان يكتب بالعربية والفارسية[٢] – أن ينقله إلى العربية ففعل، وكان ذلك سنة ٧٨هـ، فشق الأمر على الفرس وبذلوا له مائة ألف درهم على أن لا يظهر النقل، فأبى عليهم،؛ فرغم لذلك كتابهم، وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول: لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب. ثم جعلت هذه الوظيفة فى دولة بنى العباس مضافة إلى الوزير الذى كان له النظر فيه، كما كان شأن بنى برمك، وبنى سهل بن توبخت، وغيرهم من وزراء الدولة[٣].

وأما ديوان مصر فقد نقل إلى العربية سنة ٨٧هـ. فى إمارة عبد الله بن عبدالملك على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فصرف عبد الله انتناش (القبطى) وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص[٤].

«وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين: السياسية والأدبية، فمن الناحية السياسية أصبحت لغة الدواوين هى اللغة العربية، مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدى المسلمين العرب. ومن الناحية الأدبية أصبحت اللغة العربية لغة التدوين: فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت[٥].

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٥، الأحكام السلطانية للماوردى ص١٧٩.

(٢) لقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله، ولما قتل زادان فى حرب عبد الله بن الأشعث استخلف الحجاج صالحاً هذا مكانه – الأحكام السلطانية للماوردى ص١٧٨، ١٧٩، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٥.

(٣) الأحكام السلطانية ص١٧٧، ١٧٨ ومقدمة ابن خلدون جـ٥ ص٦١٥.

(٤) الخطط للمقريزى جـ١ ص٩٨ ط الأميرية.

(٥) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله.

الدواوين فى العهد العباسى

بلغت الدولة العباسية شأواً عظيما من الحضارة،وتعددت مصالحها؛ فاستحدث خلفاؤها الكثير من الدواوين التى لم تكن موجودة من قبل، ولكن استدعتها حاجة الدولة وتطورها . كما توسعوا فيما كان موجوداً، وكان من أهم هذه الدواوين التى استحدثوها أو توسعوا فيها :

١- ديوان الزمام . ٢- ديوان الأكرية .

٣- ديوان الأحداث والشرطة . ٤- ديوان البريد .

وديوان الزمام هو أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان، وهو من أعظم النظم التى أدخلها الخليفة المهدى، وهو يشبه ديوان المحاسبة اليوم .

وديوان الأكرية كان يشرف على القنوات، والترع، والجسور، وشئون الرى، فهو يشبه وزارة الأشغال فى زماننا .

وديوان الأحداث والشرطة، كان عمله خاصًّا بالأحداث الى تقع فى الدولة، وواجب الشرطة نحو هذه الأحداث؛ فهو قريب الشبه من وزارة الداخلية فى أيامنا .

وكان ديوان البريد من الدواوين الهامة فى بغداد كما سيتبين فيما بعد .

كذلك كانت هناك إدارات خاصة للمحافظة على مصالح غير المسلمين، ويدعى رئيسها كاتب الجهباز .

ومن ثم يتبين أن النظام الإدارى فى أيام العباسيين من حيث توزيعه للعمل يعادل إلى حد كبير النظم الحديثة (١) .

* * *

(١) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

القضـــاء

القضاء هو الفصل بين الناس فى خصوماتهم حسما للتداعى، وقطعا للتنازع[١].

القضاء فى عهد النبى ﷺ :

ذكرنا فيما سبق أن النبى ﷺ لما ستقر به المقام فى المدينة عقد عهداً بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين واليهود، كان مما جاء فيه : «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ»[٢].

ومن ثم أصبح النبى ﷺ هو القاضى الذى يفصل بين أهل المدينة المسلمين منهم واليهود، ويقضى فيما يكون بينهم من حدث أو اشتجار .

ومع ذلك فإن المسلمين بحكم إيمانهم، كانوا يتجهون إلى النبى ﷺ فيما يحدث بينهم؛ فقد كان من أمارات الإيمان الكامل، تحكيم النبى ﷺ فيما يشجر بينهم . قال تعالى :﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ .

ولم يكن فى زمنه ﷺ قاض سواه، لقلة عدد المتقاضين ؛ فقد أزال الإسلام ما كان بينهم من الشحناء والبغضاء. وألف بين قلوبهم، وجعلهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان به خصاصة .

ولم يؤثر عنه ﷺ أنه خصص رجلا بالقضاء ولكن كان يعهد به إلى بعض ولاة الأقاليم فى ضمن توليتهم أمور الولاية، وأحياناً كان يعهد إلى بعض أصحابه بفض بعض الخصومات .

كان يحكم بينهم بما أنزل الله امتثالا لقوله جل شأنه : ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ . وكان المتخاصمان يحضران إليه بمحض اختيارهم، إذ إن الكثير من الخصومات لم تكن نزاعا حقيقيا، وإنما كانت صورة من صور السؤال والاستفتاء .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ . (٢) راجع سيرة ابن هشام جـ٢ ص١٦ .

وكانت أهم طرق الإثبات فى زمنه ﷺ هى : البينة واليمين والكتابة .

القضاء فى عهد الخلفاء الراشدين :

ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة [١] أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب، فظل سنة [٢] ، وقيل سنتين لا يختلف إليه أحد، ولا يأتيه متخاصمان لم بينا، ولما عرف عنه من الحزم والشدة فى الحق، على أنه لم يلقب بلقب قاض مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

وفى عهد عمر لما انتشر الإسلام، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واختلط المسلمون بغيرهم، وكثرت مهام الخليفة، استدعى ذلك تولية قضاة مستقلين عن الأمراء، ينوبون عن الخليفة فى الفصل بين الناس فى الخصومات؛ فولى أبا الدرداء معه قضاء المدينة، وولى شريحا قضاء الكوفة، وولى أبا موسى الأشعرى قضاء البصرة، وولى قيس بنْ أبى العاص قضاء مصر [٣]؛ فكان رضى الله عنه أول من ولى قضاة مستقلين فى الولايات الإسلامية وفوضهم فيه [٤] .

سن عمر رضوان الله عليه للقضاة دستوراً يسيرون على هديه فى أحكامهم، وأرسله إلى أبى موسى الأشعرى، وإلى غيره من القضاة، وهذا نصه [٥] .

« بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن

---

(١) كان الفصل بين الناس فى خصوماتهم بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا فى عمومها – ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ص٢٥٤ .

(٣) اختلف المؤرخون فى أول من ولى القضاء فى مصر، كما اختلفوا فى أن تولية القضاء كانت من الخليفة، أو من والى مصر، ولكن أهمية القضاء فى ذلك الوقت ترجح أن الخليفة نفسه هو الذى ولى قاضى مصر، والذى يظهر من كلام بعض المؤرخين أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص أن يولى القضاء كعب بن يسار، ثم عزله إجابة لرغبته، وولى مكانه قيس بن أبى العاص – راجع كتاب القضاء فى الإسلام للأستاذ عطية مشرفة .

(٤) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ .

(٥) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص١١٦، العقد الفريد جـ١ ص١٠٠ ط لجنة التأليف، الأحكام السلطانية للماوردى ص٥٩، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ – ٥٧٠ ، الكامل للمبرد جـ١ ص٧،٨ ط التقدم سنة ١٣٢٣، إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى على هامش الإتقان للسيوطى جـ١ ص١٨٧، البيان والتبيين للجاحظ جـ٢ ص٢٣، المبسوط للسرخسى جـ١٦ ص٦٠،=

قيس [١]، سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس [٢] بين الناس فى وجهك، وعدلك، ومجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك [٣]، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين . إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج [٤] فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور بنظائرها، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقا غائباً أو بينة أمدا ينتهى إليه؛ فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أوظنينا [٥] فى ولاء أو نسب؛ فإن الله عز وجل تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات [٦] والأيمان، وإياك والغلق [٧] والضجر، والتأذى بالخصوم، والتنكر عند الخصومات؛ فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر؛ فمن صحت نيته، وأقبل على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق [٨] للناس بما يعلم الله أنه ليس

= أعلام الموقعين لابن القيم الجوزية جـ١ ص٩٩، ١٠٠ وما بعدهما، ومن أحسن ما كتب فى ذلك أيضا ما كتبه على بن أبى طالب إلى الأشتر وهو أطول عهد وأجمع كتبه للمحاسن، راجع نصه فى نهج البلاغة جـ٣ من ص٩٢ – ١٢٢، وإن كان المرحوم الشيخ النجار فى كتابه تاريخ الإسلام ص٤٨٨ شك فى نسبته لعلى، وكذلك شك الأستاذ مصطفى مشرفة فى كتابه القضاء فى الإسلام ص١١١ .

(١) هو اسم أبى موسى الأشعرى .

(٢) آس بين الناس أى سو بينهم، واجعل بعضهم أسوة بعض .

(٣) حتى لا يطمع شريف فى حيفك أى فى ميلك معه لشرفه .

(٤) تلجلج : تردد .

(٥) أو ظنين فى ولاء أو نسب فهو المتهم، تقول: ظننت بزيد، وظننت زيداً أى اتهمت .

(٦) ودرأ بالبينات والأيمان أى دفع التهمة بالبينة أو اليمين .

(٧) وإياك والغلق والضجر: يعنى ضيق الصدر وقلة الصبر .

(٨) من تخلق للناس: أظهر لهم فى خلقه خلاف نيته .

ـ نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب [1] الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام» .

وهذا الكتاب يعتبر إلى وقتنا هذا من أسس القضاء، ومن أهم نظمه وأصوله؛ فقد جمع فيه عمر رضى الله عنه جمل الأحكام، وجعل الناس بعده يتخذونه إماما، ولا يجد محق عنه معدلا، ولا ظالم عن حدوده محيصاً [2] .

كان القضاء فى زمن الخلفاء مستقلا ذا منزلة رفيعة، وكان القضاة يولون من قبل الخليفة، أو الوالى، إن كانت ولايته عامة، بأن كانت إليه ولاية الصلاة والخراج وإمارة الجند، والشرط والقضاء، وكان يراعى فى اختيار القضاة الصفات التى تحقق العدالة والمساواة؛ من العلم، والتقوى، والعدل، والعفة وما يتصل بذلك [3] .

ولم يكن للقاضى كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام؛ لأن الأمر لم يكن يدعو إلى شىء من ذلك؛ فالقاضى هو الذى يقضى، وهو الذى ينفذ، وقلما كان المتقاضون يحتاجون إلى التنفيذ؛ لأنهم كانوا إلى الاستفتاء أقرب منهم إلى التقاضى؛ فالمنازعات كانت تجرى بينهم فى أمور مشتبهة يوضحها حكم القضاء [4] .

وكان القاضى يجلس للحكم فى منزله، ثم أصبح يعقد جلساته فى المسجد بعد ذلك .

ولم يكن فى زمنه ﷺ ولا فى زمن أبى بكر، وعمر، وعثمان سجن [5] بالمعنى المعروف، فلما كان زمن على كرم الله وجهه بنى السجن، وهو أول من بناه فى

---

(١) ثواب: ما يثوب إليك من مكافأة الله وفضله من ثاب يثوب إذا رجع – الكامل للمبرد جـ١ ص٩ ط التقدم العلمية: وقال صاحب أعلام الموقعين: «وهذا الكتاب الجليل تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة، والحاكم والمفتى أحوج شىء إليه، وإلى تأمله والتفقه فيه» جـ١ ص١٠٠ .

(٢) الكامل للمبرد جـ١ ص٧ .

(٣) الأحكام السلطانية ص٥٣، ٥٤ وراجع كتاب القضاء الإسلامى للأستاذ مصطفى مشرفه، ففيه فوائد ذات بال عن ميزات القضاء فى عهد الخلفاء، ومدى اختصاص القضاة وغير ذلك .

(٤) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٦٤ .

(٥) كان هناك حبس فى زمن عمر رضى الله عنه؛ فقد حبس الحطيئة باستدعاء الزبرقان عليه فى قصة ذكرها المبرد فى الكامل جـ١ ص٢٨٦ .

الإسلام، وفى ذلك يقول :

ألا ترانى كيسا مكيسا بنيت بعد نافع مخيسا [1]

القضاء فى عهد الأمويين :

تميز القضاء فى العهد الأموى، بميزتين :

الأولى: أن القاضى كان يحكم باجتهاده فيما ليس فيه نص من كتاب ولا سنة؛ إذ لم تكن المذاهب الأربعة المعروفة، والتى تقيد بها القضاة فيما بعد قد ظهرت .

والثانية : أن القضاء لم يكن متأثرا بالسياسة؛ فقد كان القضاة مستقلين فى أحكامهم، لا تأخذهم فى الحق لومة لائم، ولا يتأثرون بميول الحاكمين، وكان قضاؤهم نافذا على الولاة وعمال الخراج .

القضاء فى العصر العباسى :

تطور نظام القضاء فى العهد العباسى تطوراً كبيراً، ومن أهم مظاهر هذا التطور :

١- ضعف روح الاجتهاد فى الأحكام، لظهور المذاهب الأربعة التى سادت العالم الإسلامى، وأصبح القاضى يحكم وفقاً لمذهب من هذه المذاهب، وكان القاضى فى العراق يحكم بمذهب أبى حنيفة، وفى مصر بمذهب الشافعى، وفى الشام والمغرب بمذهب مالك [2] .

٢- تأثر القضاء بالسياسة؛ لأن الخلفاء العباسيين كانوا يريدون أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية، فعملوا على استمالة القضاة للسير وفق سياستهم، فى الحكم، مما أدى إلى امتناع بعض الفقهاء عن تولى القضاء خشية الميل فى قضائهم والحكم بما يخالف الشريعة؛ فهذا أبو حنيفة يمتنع عن تولى القضاء، ويعتذر للخليفة المنصور، ويقول له : « اتق الله ولا ترع فى أمانتك إلاّ من يخالف الله، والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب » .

٣- استحداث نظام قاضى القضاة، وهو يشبه وزير العدل اليوم، وكان يقيم فى حاضرة الدولة، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأمصار والأقاليم، وأول من لقب

---

(١) فتح القدير جـ٥ ص ٤٧١ ، حاشية أبى السعود على ملامسكين جـ٣ ص٢٩ .

(٢) كان ذلك تبعاً لانتشار هذه المذاهب فى الأقاليم الإسلامية، ثم ساد مذهب أبى حنيفة فى الدولة العثمانية، واستتبع ذلك أن جرى عليه القضاء فى مصر، وإلى وقتنا هذا مازال العمل فى قضاء الأحوال الشخصية على مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

بهذا اللقب، القاضى أبو يوسف صاحب أبى حنيفة، وكان الخليفة الرشيد يجله ويكرمه؛ فدعاه قاضى القضاة، وكان أبو سيف جليلا عالى الهمة، وهو الذى ميز العلماء بلباس خاص بهم، وكانوا من قبله يلبسون مثل سائر الناس (١) .

٤- اتساع سلطة القاضى، فأضيف إليه استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين كالنظر فى أموال اليتامى والمحجور عليهم، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم، وفى مصالح الطرقات والأبنية، وقد تضاف إليه الشرطة، والمظالم، والحسبة .

وكانوا إذا ولوا القاضى جاءوا به إلى الجامع، واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر بذلك، وتوسع بعض الخلفاء، فجعلوا للقضاة قيادة الصوائف (٢) ، وممن تولى الصائفة يحيى بن أكثم؛ فقد كان يخرج فى أيام الخليفة المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وقد تضاف إليه الوزارة، وأول من جمع بينهما أبو محمد البازورى سنة ٤٤١هـ، ثم أضيفت إلى غيره من بعده (٣) .

ومن ثم ندرك أن منصب القضاء كانت له هيمنة على كثير من مهام الدولة، وكان صاحبه يتمتع بنفوذ كبير، على أنه لم يكن كذلك فى كل العصور، وإنما كان ذلك يختلف باختلاف الأحوال فى الدول الإسلامية .

قاضى المظالم

« نظر المظالم هو قود(٤) المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة؛ فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع؛ لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة، وثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين » (٥)؛ فهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان ص٢٤٥، وهذه الوظيفة كانت قائمة فى مصر إلى عهد قريب، وكان يطلق على صاحبها قاضى قضاة مصر والسودان .

(٢) الصائفة: الغزوة فى الصيف، وكانت عادتهم أن يغزوا الروم فى الصيف .

(٣) راجع ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ وما بعدها . وتاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

(٤) القود (بسكون الواو) نقيض السوق، يقود الدابة من أمامها ويسوقها من خلفها .. وقاد البعير واقتاده معناه جره خلفه – لسان العرب .

(٥) الأحكام السلطانية ص ٦٤ .

والنظر فى المظالم خطة قديمة؛ فقد «كان ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك، وقوانين العدل الذى لا يعم الصلاح إلا بمراعاته، ولا يتم التناصف إلا بمباشرته».

«وكانت قريش فى الجاهلية حين كثر فيهم الزعماء، وانتشرت فيهم الرياسة، وشاهدوا من التغالب والتجاذب ما لم يكفهم عنه سلطان قاهر، عقدوا حلفاً على رد المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم» كما قدمنا (١).

وقد نظر النبى ﷺ المظالم فى الشرب الذى تنازعه الزبير بن العوام رضى الله عنه ورجل من الأنصار، فقد روى أصحاب السنن: «أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبى ﷺ فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل، فقال الأنصارى: سرح الماء يمر؛ فأبى عليه؛ فاختصما عند النبى ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصارى فقال: أن كان ابن عمتك! فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال،: اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر» (٢).

ولم ينتدب(٣) للمظالم من الخلفاء الراشدين إلا فى القليل النادر، لأنهم فى الصدر الأول مع ظهور الدين عليهم، بين من يقوده التناصف إلى الحق، أو يزجره الوعظ عن الظلم، وإنما كانت المنازعات تجرى بينهم فى أمور مشتبهة، يوضحها حكم القضاء، فإن تجور من جفاة أعرابهم متجور ثناه الوعظ أن يدبر، وقاده العنف أن يحسن، فاقتصر خلفاء السلف على فصل التشاجر بينهم بالحكم، والقضاء تعييناً للحق فى جهته لانقيادهم إلى إلزامه، واحتاج على رضي الله عنه حين تأخرت إمامته،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٩٠-٩٢، لأحكام السلطانية للماوردى ص٦٤، ٦٥ وقد ذكر السبب فى هذا الحلف بالتفصيل كما ذكره بشيء من التفصيل أيضاً فى الروض الأنف على سيرة ابن هشام.

(٢) أخرجه البخارى فى الشرب، وفى الصلح، وفى تفسير سورة النساء، وأخرجه مسلم فى فضائل النبى ﷺ، وأخرجه أبو داود فى القضايا، وأخرجه الترمذى فى الأحكام، وفى التفسير، وأخرجه النسائى فى القضاء، وفى التفسير، وأخرجه ابن ماجه فى السنة وفى الأحكام، واللفظ للبخارى، وراجع الخراج لأبى يوسف ص٥٨ ط الأميرية، والأحكام السلطانية للماوردى ص٦٤، والمغنى لابن قدامة الحنبلى جـ ٥ ص٥٣١. والشرج مسيل الماء من الحرة إلى السهل والجمع شراج وشروج، والحرة أرض ذات حجارة نخرة سود، والجدر الحائط كالجدار - القاموس.

(٣) ندبه لأمر فانتدب له أى دعاه له فأجاب - لسان العرب.

واختلط الناس فيها، وتجوروا إلى فضل صرامة فى السياسة، وزيادة تيقظ فى الوصول إلى غوامض الأحكام، فكان أول من سلك هذه الطريقة واستقل بها، ولم يخرج فيها إلى نظر المظالم المحض لاستغنائه عنه (١) .

ثم انتشر الأمر بعده حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب، ولم يكفهم زواجر العظة عن التمانع والتجاذب، فاحتاجوا فى ردع المتغلبين، وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذى يمتزج به قوة السلطنة بنصفة القضاء، فكان أول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين، من غير مباشرة للنظر، عبد الملك بن مروان؛ فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبى إدريس الأودى (٢) ، فنفذ فيه أحكامه لرهبة التجارب من عبد الملك بن مروان فى علمه بالحال، ووقوفه على السبب، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر .

ثم زاد من جور الولاة، وظلم العتاة ما لم يكفهم عنه إلا أقوى الأيدى، وأنفذ الأوامر؛ فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها، وراعى السنن العادلة وأعادها، ورد مظالم بنى أمية على أهلها ...

« ثم جلس لها من خلفاء بنى العباس جماعة؛ فكان أول من جلس لها المهدى، ثم الهادى، ثم الرشيد، ثم المأمون، فآخر من جلس لها المهتدى حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها (٣) .

هكذا كان الخلفاء يسمعون ظلامات الناس، وينصفونهم، ومن أمثلة ما ردوه من مظالم .

---

(١) الأحكام السلطانية ص٦٥ ومن الطرق التى عمد إليها على كرم الله وجهه للوصول إلى غوامض الأحكام أنه كان يفرق بين الشهود كما فعل مع شهود المرأة التى رمت غيرها بالزنى، مما أدى إلى اعترافهم بأنها بريئة، وأنها إنما رمتها وهى يتيمة عند زوجها بعد أن أخذت عذرتها مخافة أن يتزوجها زوجها عليها لجمالها – الطرق الحكمية لابن القيم ص ٦٠ وذلك هو المتبع الآن فى القوانين الحديثة .

(٢) الأودى بفتح الألف وسكون الواو وفى آخرها دال مهملة نسبة إلى أود بن صعب بن سعد العشيرة من مذحج – اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير جـ١ ص٧٤، الأنساب للسمعانى .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص٦٤ و ٦٥، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٥٧١ .

١ – ما حكى من أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة، فصادفه رجل من اليمن متظلماً فقال :

تدعون حيران مظلوماً ببابكم فقد أتاك بعيد الدار مظلوم

فقال : ما ظلامتك؟ فقال : غصبنى لوليد بن عبد الملك ضيعتى، فقال يا مزاحم ائتنى بدفتر الصوافى؛ فوجد فيه أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان فقال : أخرجها من الدفتر واكتب برد ضيعته إليه. وقال له صعف نفقته [١] .

٢ – كان الخليفة المأمون يجلس للمظالم فى يوم الأحد، فنهض ذات يوم من مجلس نظره، فلقيته امرأة فى ثياب رثة، فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد يا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد الملك أرملة عدى عليها، فما تقوى به أسد
فابتز منها ضياعاً بعد منعتها لما تفرق عنها الأهل والولد

فأطرق المأمون يسيراً ثم رفع رأسه وقال :

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد وأقرح القلب هذا الحزن والكمد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفى وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
المجلس السبت إن يقض الجلوس لنا أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فانصرفت، وحضرت يوم الأحد فى أول الناس؛ فقال لها المأمون : من خصمك؟ فقالت : القائم على رأسك، العباس ابن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم : أجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها معه، ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجابه، فقال له المأمون : دعها فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، وأمر برد ضياعها عليها [٢] .

على أنه « ربما كانوا يجعلونها لقضاتهم، كما فعل عمر رضى الله عنه مع قاضيه أبى إدريس الخولانى، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم، والمعتصم لأحمد بن أبى داؤد » [٣] .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦٩ . (٢) الأحكام السلطانية ص ٧١ .
(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٧١

وفى مصر كان أول من جلس للنظر فى المظالم أحمد بن طولون، ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم .

« وإذا نظر فى المظالم من انتدب لها جعل لنظره يوما معروفا يقصده فيه المتظالمون، ويراجعه فيه المتنازعون، ليكون ما سواه من الأيام هو موكول إليه من السياسة والتدبير، إلا أن يكون من عمال المظالم المنفردين لها، فيكون مندوبا للنظر فى جميع الأيام» (١) .ويستكمل مجلس نظره بحضور خمس جماعات لا يستغنى عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم وهم :

١- الحماة والأعوان، لجذب القوى وتقويم الجرىء .

٢- القضاة والحكام، لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق .

٣- الفقهاء ليرجع إليهم فيما أشكل، ويسألهم فيما اشتبه وأعضل .

٤- الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم، وما توجه لهم أو عليهم من الحقوق .

٥- الشهود ليشهدهم على ما أوجبه من حق، وأمضاه من حكم .

وكان اختصاص من ينظر فى المظالم واسعاً يشمل :

١- النظر فى تعدى الولاة على الرعية، وأخذهم بالعسف فى السيرة .

٢- جور العمال فيما يجبونه من الأموال .

٣- كتاب الدواوين؛ فيتصفح أحوال ما وكل إليهم؛ فإن عدلوا بحق من دخل أو خرج إلى زيادة أو نقصان أعاده إلى قوانينه .

٤- تظلم المسترزقه من نقص أرزاقهم، أو تأخرها عنهم وإجحاف النظر بهم .

٥- رد الغصوب سواء أكانت سلطانية تغلب عليها ولاة الجور، أو كانت مما تغلب عليها ذوى الأيدى القوية .

٦- مشارفة الوقوف فيتصفحها ليجريها على سبيلها، ويمضيها على شروط واقفها إذا عوفها .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦٦ .

٧- إمضاء ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه؛ لعلو قدر المحكوم عليه وعظم خطره .

٨- النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة فى المصالح العامة، كالتعدى فى طريق عجز من منعه .

٩- مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع، والأعياد، والحج، والجهاد من تقصير فيها وإخلال بشروطها .

١٠- النظر بين المتشاجرين، والحكم بين المتنازعين، فلا يخرج فى النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه، ولا يسرغ أن يحكم بينهم إلا بما يحكم به الحكام والقضاة[١] .

وقد ذكر صاحب الأحكام السلطانية الفرق بين نظر المظالم، ونظر القضاة بما يوضح مدى سلطة قاضى المظالم واتساعها، وما كان يتمتع به من نفوذ وهيبة[٢].

ولما أفضت الحكومة فى مصر إلى السلاطين الأيوبيين بنوا داراً للنظر فى المظالم سموها « دار العدل » وكان قد سبقهم إلى بناء مثل هذه الدار فى دمشق الملك العادل نور الدين زنكى، وهو أول من بنى « دار العدل » من الملوك [٣] .

ومن هذا نتبين أن قضاء المظالم كان أشد وقعاً، وأسرع نفاذاً، وأوسع مدى؛ وأن اختصاصه يشمل القضاء العالى ومجلس الدولة فى زماننا .

كما نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة، وما كان لصاحبها من السلطة، ونفاذ الكلمة، وعلى ما كان عليه النظام القضائى من الدقة، وهو نظام لا يقل كثيراً عن مثيله فى الوقت الحاضر مع أنه قد ساد منذ نيف وعشرة قرون .

* * *

---

(١) المصدر السابق ص٦٩ ، ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩ ، ٧٠ ، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ١٧٥ .

(٣) الخطط للمقريزى جـ٢ ص٢٠٨ .

الحسبة (١)

الحسبة هى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله؛ فهى وظيفة دينية؛ لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له؛ فيتعين فرضه عليه، بحكم الولاية، وإن كان على غيره من فروض الكفاية (٢)، قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

ولما لهذه الوظيفة من جليل الأثر وصف الله بها هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم التى أخرجت للناس؛ فقال جل شأنه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكانت سلطة القاضى – على ما هومعروف عن القضاء اليوم – موزعة بينه، وبين المحتسب، وقاضى المظالم؛ فوظيفة القاضى هى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب هى النظر فيما يتعلق بالنظام العام، وفى الجنايات أحياناً، ومن أهم ما يقوم به قاضى المظالم، الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب (٣).

---

(١) الحسبة لغة اسم من الاحتساب وهو ادخار الأجر والثواب عند الله تعالى، وفى الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتسابا ...» أى طلبا لوجه الله وثوابه .. وفى حديث عمر: «أيها الناس احتسبوا أعمالكم؛ فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله، وأجر حسبته» .. وإنما قيل لمن ينوى بعمله وجه الله احتسبه «لأن له حينئذ أن يعتد عمله ..» لسان العرب .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٥٧٦ ، وهذا هو حكمها؛ فقد اتفق العلماء على أنها من فروض الكفاية، إذا قام بها البعض سقط الطلب عن الباقين، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ...﴾ الآية أى من بعضكم، وهى فرض عين على القائم بأمور المسلمين، ولكن لكثرة مهامه ومشاغله، له أن يعين لها من يراه أهلا .

(٣) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

وقد يسند القضاء والحسبة إلى رجل واحد مع ما بين الوظيفتين من اختلاف؛ إذ إن القضاء موضوع للمناصفة؛ فهو يتطلب الأناة والوقار، والحسبة موضوعة للرهبة، فهى تتطلب السلاطة والغلظة والصرامة (١) .

نشأة الحسبة:

« نشأت الحسبة فى عهد رسول الله ﷺ ، استجابة لحكم الآية الكريمة ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقد تولى رسول الله ﷺ الحسبة بنفسه، وقلدها غيره، واتبعها من بعده الخلفاء، ثم صارت ولاية من ولايات الإسلام، ونظاماً من أنظمة الحكم التى جرى عليها الولاة والحكام » (٢) .

ومما يدل على أن النبى ﷺ قد تولاها بنفسه، ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غش فليس منى » (٣) .

لم يقصر النبى صلوات الله عليه الحسبة على نفسه، بل أشرك غيره فى القيام بها؛ فقد استعمل صلوات الله عليه سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح، على سوق مكة .

وسار عمر رضى الله عنه فى القيام بالحسبة على نهج رسول الله ﷺ ؛ فقد روى أنه رؤى مرة يضرب جمّالا ويقول له: « حملت جملك ما لا يطيق » .

كما روى أنه حرق بيت رويشد الثقفى لأنه كان يبيع الخمر وقال له: « أنت فويسق ولست برويشد » (٤) .

كما استعمل السائب بن يزيد على سوق المدينة مع عبد الله بن عتبة بن مسعود، وكذلك استعمل النساء فى القيام بهذه الوظيفة أيضاً، فولى السيدة الشفاء

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢١٠ .

(٢) الحسبة فى الإسلام للأستاذ إبراهيم الشهاوى ص ١٠٣ .

(٣) صحيح مسلم جـ١ ص٩٩ ، باب ٤٣ ، وراجع نيل الأوطار جـ٥ ص ١٨٠ ط. الحلبى، وفيه أنه رواه الجماعة إلا البخارى والنسائى .

(٤) الطرق الحكمية لابن القيم الجوزية ص٢٤٧ ، ٢٥٨ .

على سوق المدينة، وكانت لها عنده منزلة كبيرة، حتى إنه كان يقدمها فى الرأى، وتولت السيدة سمراء بنت نهيك الأسدية هذا المنصب أيضاً، وقد أدركت رسول الله ﷺ وعمرت طويلا، وكانت تمر فى الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس على ذلك بسوط معها (١) .

شروط المحتسب :

ومن شروط والى الحسبة، أن يكون حرا، عدلا، ذا رأى، وصرامة، وخشونة فى الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة (٢) ؛ لذا كان لا يتولاها إلا رجل وجيه فى دينه، وجيه فى دنياه، وله أن يتخذ الأعوان الذين ينوبون عنه فى المدن والأعمال، ويطوفون على أرباب الحرف والمعايش، فى الأسواق والطرقات، يفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاه، وما إلى ذلك (٣) .

وكانت للحسبة دار خاصة بها، فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم؛ فيعايرها، فإن وجد فيها خللا صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها، أو أمره بإصلاحها، وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية (٤) .

عمل المحتسب واختصاصه

يقول ابن خلدون : إن المحتسب « يبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين، وأهل السفن من الإكثار فى الحمل، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط، بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب، وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين» .

ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه، وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق

---

(١) القضاء فى الإسلام للأستاذ مصطفى مشرفه ص١٨٧ ، ١٨٨ .
(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٠٩ .
(٣) الخطط للمقريزى جـ١ ص ٤٦٣ .
(٤) الأحكام السلطانية ص ٢٢٠ ، الخطط للمقريزى جـ١ ص١١٠ ، ٤٦٤ .

بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها. وفى المكاييل والموازين، وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك، مما ليس له سماع بينة، ولا إنفاذ حكم.[1].

ومن الواضح أن ابن خلدون لم يستوعب فيما ذكره كل اختصاصات المحتسب، ولما كانت اختصاصاته – أصالة – هى: الأمر بكل معروف ظهر تركه، والنهى عن كل منكر ظهر فعله، وكانت الحقوق المقررة فى الشريعة ترجع إلى حقوق الله، أو إلى حقوق العباد، أو إلى حقوق مشتركة بين الله والعباد – أمكن أن نحصر احتصاصات المحتسب في أمرين :

الأول : الأمر بالمعروف، ويتناول .

١ – حقوق الله تعالى، مثل صلاة الجمعة والجماعة.

٢– حقوق العباد، مثل : الإشراف على الأسواق وما إليها مما يتصل بالمرافق العامة .

٣– حقوق مشتركة بين الله تعالى والعباد، مثل: أخذ الأولياء بنكاح الأيامى، وتكليف أصحاب الدواب بإطعامها .

والثانى: النهى عن المنكر، ويتناول

١– حقوق الله تعالى، مثل: الإفطار فى رمضان .

٢– حقوق العباد، مثل: الضرب على أيدى من يتعدى على حقوق الجوار .

٣– حقوق مشتركة بين الله والعباد، مثل: منع أصحاب الدواب من تحميلها مالا تطيق[2].

ومن هذا يتضح أن اختصاص والى الحسبة يمتد إلى كل ما يتصل بالصالح العام «ولكن بالرجوع إلى تاريخ الولايات فى الإسلام نرى أن الاختصاصات فيها قد تزيد عن أصلها، وقد تنقص؛ فليست محددة فى كل الأوقات، ولا فى كل الدول، وذلك راجع إلى نظر الحاكم فيمن يريد أن يوليه أمرا من الأمور»[3].

وهذه الأمور التى يقوم بها المحتسب كانت فى الأغلب من عمل القاضى،

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٧٦ ، ٥٧١ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص٢٠١ وما بعدها .

(٣) الحسبة فى الإسلام للأستاذ إبراهيم الشهاوى .

ولكنهم فصلوها عنه، وأسندوها للمحتسب، «وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها، وسهولة أغراضها . . . فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء».

وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية مثل الفاطميين بمصر والمغرب، والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى، يولى فيها باختياره، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخليفة، وصار نظره عاما فى أمور السياسة، اندرجت فى وظائف الملك، وأفردت بالولاية (١).

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين، واتسعت سلطة المحتسب، حتى إنه كان يلزم رجال الشرطة بتنفيذ أحكامه.

وكان المحتسب يجلس للفصل بين الناس فى جامعى عمرو، والأزهر، يوما بعد يوم (٢).

القائمون بالحسبة الآن

اتسعت مرافق الحياة فى وقتنا الحاضر وتشعبت، كما تشعبت جهات الاختصاص تبعا لوظيفة كل مرفق؛ ولذلك فإن اختصاصات والى الحسبة يقوم بها الآن كثير من المصالح والوزارات المختلفة، فمنها ما تقوم به النيابة العامة كالاعتداء على النفس، أو المال، وما تقوم به النيابة الإدارية كتقصير الموظفين وإهمالهم فى واجبهم، وما يقوم به مجلس الدولة كظلامات الموظفين، وما تقوم به الشرطة كملاحظة الطرقات، وما تقوم به مصلحة الدمغة، كالإشراف على المكاييل والموازين والصياغة، ومنها ما تقوم به وزارة الصحة، كمخالفات الصيادلة، وما تقوم به وزارة التربية والتعليم كالإشراف على المدارس والمعاهد،وما تقوم به وزارة الأوقاف كالإشراف على المساجد، وما تقوم به وزارة المواصلات كالعناية بوسائل النقل، وما تقوم به وزارة الأشغال كالعناية بالجسور والمياه، وما تقوم به وزارة الإسكان كالإشراف على المنازل والدور، وما يقوم به الوعاظ والمرشدون كالحض على الصلاة؛ واجتناب الغش والتدليس.

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٧٧ .

(٢) الخطط للمقريزى جـ١ ص ٤٦٣ .

وهكذا نرى أن كثيرا من المصالح والوزارات المختلفة تقوم كل منها بجانب مما كان يقوم به المحتسب .

أثر الحسبة للمجتمع

تختلف النفوس البشرية فى حبها للخير، وميلها عنه؛ فهناك نفوس خيرة يقودها التناصف إلى الحق، ويزجرها الوعظ عن الظلم، ونفوس متجورة لا يقودها إلى الإحسان إلا العنف، ولا يثنيها عن الشر إلا الشدة والخوف؛ ومن لم تصلحه الكرامة يصلحه الهوان؛ فالمجتمع بما فى أفراده من تباين فى الأخلاق، وتنافر فى الطباع، يحتاج إلى اللين مرة، والشدة أخرى، وإلى العنف تارة والإرشاد تارة أخرى؛ فللحسبة الأثر الطيب فى النفوس الكريمة، والتوجيه الحميد لذوى القلوب الطاهرة؛ وحتى النفوس الجامحة كثيراً ما يؤثر فيها الوعظ ويلطف من جموحها الإرشاد، وهذا أمر مشاهد ملموس، فإذا ما اهتم أولو الأمر بالحسبة، وأولوها عنايتهم، واختاروا لها الأكفاء جنوا أطيب الثمرات، وحصلوا على أفضل النتائج .

* * *

الشرطـــة [1]

الشرطة الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة، أو الوالى فى حفظ الأمن، والقبض على الجناة والمفسدين، والضرب على أيدى المريبين والمذنبين، وتأديبهم وما يتصل بذلك مما يكفل سلامة الناس، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم؛ فهى من الوظائف الهامة للدولة .

وأول من استن العسّ [2] عمر بن الخطاب، وكان يعس بالمدينة يحرس الناس، وينفض الليل عن أهل الريبة ويكشفهم، وفى عهد على كرم الله وجهه نظمت الشرطة، وأطلق على رئيسها «صاحب الشرطة»، ثم ازدادت أهميتها والعناية بها فى عهد الدولة الأموية، وكان صاحبها يختار من علية القوم وأهل العصبية والقوة، وأطلقوا عليه صاحب الأحداث، وهو يشبه مدير الأمن فى وقتنا الحاضر .

وكانت الشرطة من توابع القضاء فى أول الأمر؛ فقد كان الغرض منها تنفيذ أحكام القضاء، أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، وإقامة التعزير والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة، ومساعدة القاضى فى إثبات الذنب على مرتكبه، كذلك كان صاحبها يتولى إقامة الحدود، كحد الزنا وشرب الخمر، وغير ذلك من الأمور الشرعية إذا تنزه عنها القاضى، ثم انفصلت عن القضاء وأصبحت وظيفة مستقلة :

يقول ابن خلدون : «وكان أيضا النظر فى الجرائم وإقامة الحدود فى الدوله العباسية والأموية بالأندلس، والعُبيديين بمصر والمغرب، راجعا إلى صاحب الشرطة، وهى وظيفة أخرى دينية، كانت من الوظائف الشرعية فى تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا، فيجعل للتهمة فى الحكم مجالا، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة فى محالها، ويحكم فى القود

---

(١) الشرطة فى السلطان من العلامة والإعداد .. سموا بذلك لأنهم أعدوا لذلك، وأعلموا أنفسهم بعلامات – لسان العرب .

(٢) عس يعس عسا وعسا أى طاف بالليل - القاموس، لسان العرب .

والقصاص، ويقيم التعزير والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة » [١] .

ولم تكن فى الدولة العباسية عامة التنفيذ فى طبقات الناس، ولكن كان حكمها على الدهماء وأهل الريب، والضرب على أيدى الرعاع والفجرة .

« ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى، وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية، والضرب على أيديهم فى الظلامات، وعلى أيدى أقاربهم، ومن إليهم من أهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة، حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة، وفى أفريقية الحاكم، وفى دولة الترك الوالى [٢] .

الشرطة فى مصر :

كانت الشرطة فى مصر من أهم وظائف الدولة، وكان صاحبها من عظماء الرجال، وكان ينوب عن الوالى فى الصلاة، وفى توزيع الأعطيات، وفى غير ذلك من الأعمال، ولما بنيت مدينة العسكر جعل فيها شرطة أخرى أطلق عليها « الشرطة العليا » ، وبذلك أصبحت الشرطة قسمين :

١- الشرطة السفلى ومقرها مدينة الفسطاط .

٢- الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر [١] .

ثم نقلها جوهر الصقلى إلى القاهرة بعد بنائها .

وأصحاب الشرطة كانوا يحملون آلة من السلاح تسمى « الطبرزين » وهى عبارة عن سكين طويل يحملونها معلقة فى أوساطهم [٢] .

---

(١) ابن خلدون جـ٢ ص٥٧٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٢٥ .

(٣) الخطط للمقريزى جـ١ ص٢٠٤، ٢٠٦، وإلى جانب الشرطة العليا بنى أحمد بن طولون جامعه المعروف، ولعلها سميت الشرطة العليا لأن مكانها (وهو جبل يشكر) كان أعلى من الفسطاط .

(٤) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٢٧٥ .

البريـــد

قال صاحب الفخرى : «البريد أن يجعل خيل مضمرات [١] فى عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا، وكذلك يفعل فى المكان الآخر، والآخر حتى يصل بسرعة .

وأما معناه لغة فالبريد اثنا عشر ميلا، وأظن أن الغاية التى كانوا قدروها بين بريد وبريد هى هذا القدر» [٢] .

ولفظ بريد قيل إنه عربى، ومعناه الرسول أو الثابت، [٣] وقيل إنه فارسى معرب، وأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه محذوف الذنب؛ وذلك لأن الفرس كانوا يحذفون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الأخرى، قال امرئ القيس:

على كل مقصوص الذُّنابى معاودٍ بريدِ السُّرى بالليل من خيل بربرا [٤]

---

(١) تضمير الفرس أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت – لسان العرب، القاموس .

(٢) الفخرى لابن الطقطقى ص٧٩ ، وقال فى صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٦٦ :«أما معناه لغة فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلا» ... وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ والفرسخ، ثلاثة أميال ... ، وقد ضبط بعضهم ذلك بقوله :

إن البريد من الفراسخ أربع والفرسخ فثلاث أميال ضعوا
والميل ألف أى من الباعات أقل والباع أربع أذرع فتتبعوا

فالبريد = ٤ فراسخ = ١٢ ميلا = ١٢٠٠ باع = ٤٨٠٠٠ ذراع .
حاشية الطحطاوى على مراقى الفلاح ص٦٤ ، وراجع لسان العرب .

(٣) قال فى لسان العرب: «ويرد لى عليه كذا وكذا أى ثبت، ويقال: ما يرد لك على فلان ... أى ما ثبت ووجب ... والبريد الرسل على دواب البريد، والجمع برد، وبرد بريداً أرسله، وفى الحديث: إنه ﷺ قال: إذا أبردتم إلى بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم، البريد الرسول، وإبراده إرساله ..» .

(٤) قال فى صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٦٧: «ثم اختلف فيه فقيل: إنه عربى، وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مشتق من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه وقيل من أبردته إذا أرسلته =

الغرض من البريد .

كان الغرض من البريد فى صدر الإسلام توصيل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وعمالهم، وأخبار الولاة والعمال إلى الخلفاء . ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة؛ فهو كما ينقل أمره إلى ولاته وعماله، كان رقيبا عليهم، ينقل أخبارهم إليه، كذلك كان يتجسس على الأعداء، ويتعرف ما عندهم؛ فالبريد من هذا الوجه أشبه بقلم المخابرات فى وزارة الدفاع الآن، قال اصاحب علاء الدين: « ومن جملة الأشياء وضعهم البريد بكل مكان طلبا لحفظ الأموال، وسرعة وصول الأخبار، ومتجددات الأحوال [١]؛ فكان البريد مقصورا على أغراض الدولة، ثم أبيح فيما بعد للرعية أن ينتفعوا به فى نقل رسائلهم .

نشأة البرد :

« والبريد اختراع قديم جدا عرفه الفرس والرومان، ولكن الفضل فى تقدمه يرجع إلى ما قام به دارا الأول من ربط أجزاء الإمبراطورية الفارسية فى الشرق الأدنى [٢] » .

البريد فى الإسلام :

كان البريد معروفا عند ملوك العرب فى الجاهلية [٣]، وكذلك كان معروفا فى صدر الإسلام؛ ففى الحديث أنه ﷺ قال: إذا أبردتم إلىّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم [٤]، وقد ذكر المؤرخون أن المسلمين بينما كانوا يقاتلون الروم فى موقعة اليرموك جاء البريد يحمل وفاة أبى بكر، وتولية عمر رضى الله عنهما، وعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجند، وتولية أبى عبيدة بن الجراح مكانه[٥] .

= وقيل من برد إذا ثبت؛ لأنه يأتى بما تستقر عليه الأخبار، يقال: اليوم يوم بارد سمومه أى ثابت. وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب . قال ابن الأثير فى النهاية: وأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه مقصوص الذنب. . » وراجع لسان العرب، الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤٤٠، الكامل للمبرد جـ١ ص٢٢٢ ط التقدم سنة ١٣٢٣ .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٧٩ .

(٢) صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٦٧ كثير من مصطلحات البريد التى كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل، ومنها الفيج وهو الساعى على قدميه، والشاكرى بمعنى راكب البريد، والإسكدار وهو السجل الذى يدون فيه عدد حقائب البريد والخطابات، ويثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها - الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤٠٤

(٣) الكامل للمبرد جـ١ ص٢٣٢ ط التقدم سنة ١٣٢٣ .

(٤) لسان العرب . (٥) الطبرى جـ٤ ص٣٥ ، ط التجارية .

البريد فى عهد الأمويين :

كان معاوية أول من عنى بالبريد فى الإسلام لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها؛ فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم، وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد [١] ولكن أمره أحكم، ونظم فى عهد عبد الملك بن مروان حتى أصبح أداة هامة فى إدارة شئون الدولة، وقد أثر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: «وليتك ما حضر بابى إلا أربعة [٢] المؤذن فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه، وطارق الليل فشرّ ما أتى به، ولو وجد خيراً لنام، والبريد، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة، والطعام إذا أدرك، فافتح الباب، وارفع الحجاب، وخل بين الناس وبين الدخول».

البريد فى عهد العباسيين :

اهتم العباسيون بالبريد، واعتنوا به عناية كبرى، واعتمدوا عليه كثيراً فى إدارة شئون دولتهم، وكان أبو جعفر المنصور يقول: «ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم، فقيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية، فإنى عن ظلمها غنى، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول فى كل مرة آه آه فقيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة» [٣].

ولقد بلغ من انتظام أعمال البريد فى زمانه أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم: من بعد صلاة الصبح، ومن بعد صلاة المغرب، فكان ملما بأحوال دولته إلماما تاما، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، وإن رأى تقصيرا من أحد عماله لامه ووبخه، أو عزله عن عمله مهانا .

يقول فون كريمر . «إنه كان على رأس كل مصلحة فى الولايات الكبيرة عامل بريد مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة، بل والإشراف على أعمال الوالى،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٣٤ ط منير، صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٦٨ .

(٢) صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٦٨ ، ويذكر هذا القول عن زياد أيضا، وراجع العقد الفريد جـ١ ص٧٩ لجنة التأليف، وفى رواية؛ إلا عن ثلاثة، وراجع مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٥ .

(٣) الطبرى جـ٦ ص ٣١٣ ط الاستقامة .

كما كان بعبارة أخرى مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتها [١]، فكان الخلفاء يعدون عمال البريد عونا لهم على الإشراف على أمور دولتهم وبواسطتهم كانوا يقفون على أعمال ولاتهم وسائر رجال دولتهم » .

ومن ثم نرى أن الخلفاء كانوا لا يولون البريد إلا ثقاتهم من أهل التعقل والدراية؛ لأن على ما ينقلونه من أخبار تتوقف علاقة الخلفاء بعمالهم، أو بمعاصريهم [٢] .

البريد فى الحروب .

« وكانت تنظم أثناء الحرب بُرُدٌ حربية لشئون الحكومة؛ فمن ذلك أنه لما استطال صاحب القيروان على أرض مصر أنهض المقتدر مؤنسا الخادم، وندب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام ٣٠٢ هـ – ٩١٤م ، وتقدم على بن عيسى بترتيب الجمازات [٣] من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم [٤] .

وكان للبريد ديوان مركزى كبير فى بغداد لتسلم البريد والتقارير المرسلة من أنحاء البلاد، وكان صاحب البريد يعرض على الخليفة الهام منها، ويرسل ما عداها إلى الدواوين المختلفة [٥] كما كان له محطات [٦] على طول الطريق، وقد ساعدت معالم هذه الطرق التى أقامتها الحكومة التجار فى أسفارهم، كذلك كانت نواة للبحوث الجغرافية، إلا أن البريد كان خاصا بأعمال الدولة، وليس لنقل مراسلات الجمهور، ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة، ومع ذلك « فقد كانت تحمل فيه إلى جانب الرسائل، أشياء خاصة تبعث للسلطان مما يحتاج إلى سرعة الإيصال، فمن ذلك أن البريد كان يحمل إلى المأمون ثمارا غضة من كابل أثناء ولايته على خراسان » [٧] .

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله ص ٢٥٧ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان ص ٢٣٩ .

(٣) جمز الإنسان والبعير وغيره يجمز جمزا وجمزى وهو عدو دون الحضر، وفوق العنق وبعير جمار وناقة جمازة ... والجمز الذى يركب الجمازة – القاموس، ولسان العرب .

(٤) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤١٤ .

(٥) راجع الإدارة العربية للحسينى ص ٢٩٩ .

(٦) وبلغ عدد سكك (محطات) البريد فى إبان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة، ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق رجالها ١٥٩٫١٠٠ ديناراً فى السنة .. وفى أيام الدولة الأموية كان ينفق على البريد أربعة ملايين درهم - ابن خرداذبة ص ١٥٣ ، تاريخ التمدن الإسلامى جـ١ ص ٢٤١ .

(٧) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص ٤١٤ .

وقد يعمد الملوك أو الأمراء إلى الحيطة والحذر؛ فيجعلون بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سراً فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كان متسما بتلك العلامة، ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه؛ إذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه، كما حدث حينما دعا المنصور إليه أبا مسلم الخراسانى؛ فقد خاف عاقبة تلك الدعوة، ولما عزم على المضى للخليفة استخلف على عسكره أبا نصر بن الهيثم وقال له: «إن جاءك كتابى وهو مختوم بنصف خاتمى فهو كتابى، وإن كان مختوما بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمى»، وحين مثل أبو مسلم بين يدى المنصور قتله، وكتب على لسانه كتابا لابن الهيثم، وختمه بخاتم أبى مسلم، فلما وصله الكتاب مختوما بكل الخاتم عرف أن أبا مسلم لم يكتبه [1].

البريد الجوى «الحمام الزاجل»:

لم يكتف المسلمون بما وصل إليه نظام البريد البرى، ولكنهم خطوا خطوات واسعة فى تنظيم نقله وسرعة وصوله، واستعملوا فى ذلك الحمام الزاجل، وقد اعتنى خلفاء بنى العباس كالمهدى ثالث خلفائهم بهذا الحمام الرسائلى، وتنافس فيه رؤساء الناس فى العراق، وبالغوا فى أثمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار [2].

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أخباراً كثيرة عن استخدام الحمام فى نقل البريد، وسرعة توصيل الأخبار، ومن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة عام ٣٠٤ هـ ٩١٦م، وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه من يومه، وذكر الثعالبى: أن الرسائل كانت تصل فى ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد، وواسط، والبصرة، والكوفة بواسطة الأطيار فى يوم وليلة [3].

المراسلة بالنار:

استعمل المسلمون فى المراسلة طريقة أسرع من الحمام، وهى بناء المناظر أو المنائر، كالأبراج العالية على المرتفعات، ونقل الإشارت عليها بإشعال النار أو نحوه، فينتقل الخبر بها من منظرة إلى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب، واستخدم هذه الطريقة الحجاج بن يوسف، واتخذ المناظر بينه وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهارا، وإن كان ليلا أشعلوا نارا، وكانت المناظر متصلة بين قزوين

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢٤. (٢) صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٩٠.
(٣) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤١٦.

وواسط فيصل الخبر فى وقت قصير [١] ، واستخدمها المسلمون «استخداما حسنا فى القرن الثالث الهجرى على الساحل الإفريقى الشمالى؛ فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة فى ليلة واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا فى سنة ٤٤٠هـ، ١٠٤٨م حينما تار المغرب على الفاطميين، ولم يعد فى إمكانهم حماية الحصون من البدو» [٢] .

وقد ذكر القلقشندى فصلا مفيدا عن هذه المناور ختمه بكلمة قال فيها: «على أن مرتبها بهذه المملكة أولا أنى بحكمة ملوكية لا تساوى مقدارا؛ إذ قد ترقى فى سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى، وذلك أن البريد يأتى من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره، والحمام يأتى من الخبر بما هو أسرع فى البريد، والمناور تأتى من الخبر بما هو أسرع من الحمام، وناهيك أن يظهر عنوان الخبر فى الفرات بمصر فى مسافة يوم وليلة» [٣] .

البريد فى مصر :

اهتم الخلفاء الفاطميون فى مصر بالبريد اهتماما كبيرا، ولاسيما البريد الجوى الذى اعتنوا به، واعتمدوا عليه كثيرا حتى أفردوا له ديوانا، وجرائد بأنساب الحمام، وصنفت به بعض الكتب، ومما يدل على اعتمادهم عليه ما ذكر من أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر، ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية، وأنه يحب أن يراها، وكان بدمشق حمام من مصر، وبمصر حمام من دمشق؛ فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرى، ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية، ويرسلها إلى مصر ففعل ذلك؛ فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية؛ فجمعه الوزير يعقوب بن كلس، وطلع به إلى العزيز فى يومه؛ فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه [٤] .

كذلك ارتقى البريد فى عهد المماليك، وبخاصة فى أيام السلطان بيبرس؛ فقد وضع له نظاماً يكفل ارتباط جميع أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر بشبكة من

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورج زيدان ص ٢٤٢ .

(٢) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص ٤١٦ .

(٣) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٤٠٠ .

(٤) صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٩٠ ، ٣٩١

خطوط البريد البرية والجوية، وكان مركز هذه الخطوط قلعة الجبل [١] التى أنشأها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ ، وكان يتفرع منها أربعة خطوط برية هى :

١- خط إلى قوص، ومنها إلى أسوان، وما يليها من بلاد النوبة .

٢- خط إلى عيذاب [٢] (عن طريق قوص) وما يليها من سواكن .

٣- خط إلى الإسكندرية .

٤- خط إلى دمياط، ومنها إلى غزة.

وأصبح البريد فى عهده يصل إلى مصر مرتين فى الأسبوع، وكان يشرف عليه صاحب ديوان الإنشاء .

كذلك استخدام بيبرس حمام الزاجل فى رسائله، وكانت له أبراج فى القلعة، ومراكز معينة فى جهات مختلفة، كمراكز البريد البرى لكنها تزيد عنها فى المسافة؛ فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحيه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزلة التى تليها . وقد جرت العادة أن تكتب الرسائل من صورتين ترسلان مع حمامتين، وتطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى، حتى إذا ضلت إحداهما، أو قتلت تصل الأخرى .

كما لا يرسل الحمام فى الجو المعطر، أو قبل تغذيته غذاء كاملا، وكان حمام البريد يميز بعلامة خاصة كقص ريشه بطريقة معينة؛ فإذا وصل إلى القلعة أخذت البطاقة التى يحملها، وكثيرا ما كان السلطان يتولى فضها بنفسه [٣] .

* * *

---

(١) وهى تقع شرقى القاهرة وتشرف على ميدان صلاح الدين .

(٢) عيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة بليدة على ضفة بحر القلزم فى طريق قوص يركبون منها البحر إلى جدة – معجم البلدان لياقوت .

(٣) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٣ ، النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله ص ٢٥٨ .

الجيـــش

الحـــرب :

« الحرب رحى ثقالها [١] الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمارها الحذر » [٢]، وهى شيء طبعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل، وضرورة اجتماعية طالما كانت هناك أطماع ومظالم بشرية، وسببها فى « الأكثر إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده »[٣].

والحرب فى الإسلام حرب داعية، وقد بين القرآن الكريم فى مواضع [٤] منه السبب الذى من أجله شرع القتال، وأذن للمؤمنين فى الحرب والجهاد، وأرجعه إلى أمرين :

---

(١) ثقالها : الثقال ككتاب الجلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى جـ ١ ص ١٠٨ لجنة التأليف .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٥٣ .

(٤) المواضع التى ذكرها القرآن هى : قوله تعالى فى سورة الحج وهو أول ما أنزل فى شأن القتال : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ ، وقوله فى سورة البقرة : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ...** ﴾ ، وقوله فى سورة النساء : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ...** ﴾ ، وقوله فى سورة النساء أيضاً : ﴿ **فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ... فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ وقوله فى سورة الأنفال : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ وقوله فى سورة الأنفال أيضاً : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ وقوله أيضاً فى هذه السورة : ﴿ **الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا**

الأول: الدفاع عن النفس عند التعدى .

الثانى: الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها، بفتنة من آمن، أو بصد من أراد الدخول فى الإسلام عنه، أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته .

وأول آية نزلت فى شأن القتال هى قوله تعالى فى سورة الحج: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ..**﴾ .

وهذه الآية تفيد الإذن فقط للمسلمين فى القتال دون فرضه عليهم، ثم تتابع بعدها نزول آيات القتال طبقا للأحوال والملابسات، وإن من يتتبع كل ما نزل بشأن القتال فى القرآن يتضح له أن الإسلام لم يقرر القتال طريقا لدعوته، ووسيلة للإيمان به، وأن دعوته لم تقم، ولم تنشر على أساس من الضغط والإكراه وإنما كانت كما قال سبحانه لنبيه: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن هذا يتبين أن الإسلام لا يريد القتال، ولا يهدف إليه إلا لغرض الدفاع عن النفس، أو الدفاع عن الدعوة .

تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ، وقوله فى سورة التوبة: ﴿**وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ...**﴾ ، وقوله بعد أن مالأ اليهود قريشاً والمنافقين، وأخافوا المسلمين فى غزوة الأحزاب، ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين من عهود: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ ، وقوله حينما اتحدت قريش وقبائل العرب مع اليهود ضد المسلمين، ووقفوا جميعاً فى سبيل الدعوة: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ .

من هذه الآيات يتبين فى وضوح: أن الحرب فى الإسلام لم تكن معتدية، وأن الإذن فيها كان متدرجا، وطبقا للأحوال، وقد بين هذا التدرج ابن القيم الجوزية فى زاد المعاد جـ ٢ ص ٨٢، وفى ص ١١٤ بيان لتدرج أيضا وتصنيف للناس، وموقف الإسلام بالنسبة لقتال كل صنف، أو عدم قتالهم .

معاملة الإسلام لمخالفيه:

إن سبيل الإسلام فى دعوته، وفى القتال فى سبيل الله توضح العلاقة بينه وبين غيره، ونكتفى من ذلك بذكر بعض الآيات:

يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿**وقاتلوا في سبيلِ اللَّهِ الَّذين يُقاتلُونكُم ولا تعتدُوا إنَّ اللَّه لا يُحبُّ المُعتدين**﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويقول سبحانه فى سورة الأنفال: ﴿**وإن جنحُوا للسَّلمِ فاجنح لها وتوكَّل على اللَّه**﴾ [الأنفال: ٦١].

ويقول عز وجل فى سورة الممتحنة: ﴿**لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتلُوكُم في الدِّينِ ولم يُخرجُوكُم مِّن دياركُم أن تبرُّوهُمْ وتُقسطُوا إليهم إنَّ اللَّهَ يُحبُّ المُقسطين * إنَّما ينهاكُمُ اللَّهُ عنِ الَّذين قاتلُوكُمْ في الدِّينِ وأخرجُوكُم مِّن ديَاركُمْ وظَاهرُوا علىٰ إخْرَاجكُمْ أن تولَّوهُمْ ومَن يتولَّهُم فأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ**﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وآية الممتحنة هذه بمثابة دستور إسلامى فى معاملة المسلمين لغير المسلمين، وإذا قرأنا هذا الدستور، ثم رجعنا إلى سورة المائدة وهى من آخر القرآن نزولا. وقرأنا منها فيما يتصل بعلاقة المسلمين بغيرهم قوله تعالى:

﴿**اليوم أُحلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وطعَامُ الَّذينَ أُوتُوا الكتاب حلٌّ لَّكُمْ وطَعَامُكُم حلٌّ لَّهُمْ والْمُحصنَاتُ منَ الْمُؤْمنات والْمُحْصَنَاتُ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ من قَبْلكُمْ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورهُنَّ مُحْصنينَ غيْرَ مُسافحينَ ولَا مُتَّخذي أخْدانٍ ومن يَكْفُرْ بالإيمان فقدْ حبط عملُهُ وهُو في الآخرة منَ الخاسرينَ**﴾ [المائدة: ٥].

«إذا قرأنا هذا وذاك علمنا روح السمو التى يحملها الإسلام فى علاقته بغير معتنقيه، وأنه بر، وقسط، وتعاون، ومصاهرة.

وهى علاقة يتضاءل أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشرى فى العلاقات الدولية العامة (١).

---

(١) الإسلام والعلاقات الدولية للمرحوم الإمام الشيخ شلتوت ص ٣٨، ٣٩.

نظام الجندية :

لم يكن للعرب فى جاهليتهم نظام خاص للجند لبداوتهم، وكان كل رجل يقدر على حمل السلاح يخرج للقتال إذا ما دعا الداعى دفاعا عن عشيرته وقبيلته، ثم إذا ما انتهى القتال عادوا إلى أماكنهم وشئونهم .

وكانت أسلحتهم السيف والرمح والقوس . وكان يقودهم زعيم من زعمائهم أَلِفَ القتال، وعرف بالشجاعة، وكثيرا ما يكون هو رئيس القبيلة .

ولما جاء الإسلام، وأذن للمسلمين فى القتال، والجهاد فى سبيل الله كان كل مسلم جنديا، وله من حبه لدينه ما يدفعه إلى المبادرة إلى الجهاد، والاستشهاد فى سبيل الله .

ولما ولى عمر الخلافة عنى بأمر الجند، وأنشأ لهم ديوانا خاصا للإشراف على شئونهم، ومختلف أمورهم؛ من بيان أسمائهم وأوصافهم، وأعمالهم وأرزاقهم .

وحينما اتسعت الفتوح الإسلامية، وكثرت الغنائم، وأقبلت الدنيا على المسلمين، واستقر الكثير منهم فى المدن، خشى عمر أن يخلد بعضهم إلى الراحة والتقاعد عن الحرب، وأن ينصرف إلى الثروة؛ فتقدم إليهم بالانصراف إلى الجهاد، ورتب لهم ولأسرهم الأرزاق، وكان من يتأخر منهم عن الجهاد بغير عذر يعير ويلام لوما يردعه ويردع غيره (١) .

وإلى عمر أيضا يرجع الفضل فى إقامة الحصون، والمعسكرات الدائمة لإراحة الجنود فى أثناء سيرهم إلى عدوهم بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل، من غير أن يستريحوا من عناء السفر – اللهم إلا فى أكواخ من القصب، أوسعف النخيل، الأمر الذى ينتقص من قوتهم عند لقاء عدوهم .

ون ثم بنيت الأمصار كالبصرة، والكوفة، والفسطاط، لإراحة الجند وصد هجمات الأعداء .

---

(١) لوما يردعه كأن يعتزله الناس، أو أن يعلن عن تخلفه فى مسجد حيه، وكان هذا أشد عليه من الموت، لأن العرب كانت ترى أن الاتصاف بالجبن عار لا يمحى .

التجنيد الإجبارى :

أتم الأمويون ما بدأه عمر من العناية بالجيش؛ فنظموا ديوان الجند، وعنوا بالجيش، ولما استقر لهم الأمر نهائيا تقاعد المسلمون عن الحرب، وانصرفوا عن الجهاد، فأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجبارى .

الاستعداد للحرب :

الحرب – كما عرفنا – من طبيعة البشر، وضرورة اجتماعية طالما كانت هناك مظالم وأطماع بشرية، والاستعداد لها، والحذر من كيد العدو، ومكره أمر لازم لكل دولة تحرص على كيانها، وتريد الحياة الكريمة لنفسها، والاستعداد للحرب يمنع الحرب ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ وقديما قيل :

قد علمت خيلك أنى الصحصح إن الحديد بالحديد يفلح (١)

من أجل ذلك أخذ الإسلام حذره من خداع العدو ومكره، وأعد للحرب ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل؛ لإرهاب ذلك العدو وزعزعة ثقته فى نفسه، وفى مقدرته على الانتصار والفوز .

قال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾ .

وقال جل وعلا : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ .

بينت هذه الآية الكريمة الغرض من إعداد ما استطعنا من قوة، ومن رباط الخيل، وأنه إرهاب العدو، وتوهينه، وإلقاء الرعب فى نفسه حتى ترتعد فرائصه، وتخور قواه

---

(١) يفلح: يشق ويقطع .

فرقا وخوفا من قوة المسلمين وعظيم استعدادهم للحرب، ومن ثم لا يقدم على حربهم، ولايفكر فى غزوهم؛ فيسود السلام، ويطمئن الناس على أنفسهم وأموالهم [1].

المخذلون (الطابور الخامس).

هناك قلوب مريضة؛ تثبط الهمم، وتخذل الناس وتبطئهم، وتناصر العدو ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. والإسلام يعرف هؤلاء ويتقيهم، ويحذرهم، وينحيهم عن كل ما له صلة بسلامة الدولة وأمنها.

قال تعالى: ﴿ **وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا** ﴾ [النساء: ٨١]

أولئك هم جرثومة الوهن فى الجيش، وأسُّ التخاذل فى الأمة؛ ومن هنا نرى الأمم الواعية تحذرهم، وتحتاط منهم، وتباعد بينهم وبين كل أمر قد يصلون منه إلى أغراضهم.

قيادة الجند:

كان النبى ﷺ هو القائد الأعلى لجيش المسلمين، وبعد وفاته كانت الأحوال قد تطورت، وميادين القتال قد كثرت، وتعددت الجيوش فى الأماكن المختلفة؛ فأصبح من العسير على الخليفة أن يقوم بمهمة القيادة بنفسه، فأسندها إلى من يصلح لها ممن عرف بالشجاعة والنجدة، والإقدام والحزم، وحسن التدبير، والبصر بتعبئة الجيوش، والخبرة بفنون القتال، وإعمال الخدعة، وانتهاز الفرصة، والتماس العزة، وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق والتحفظ من البيات[2]، من أمثال خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبى عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص.

وكانت الطاعة لهؤلاء القواد واجبة كطاعة الخليفة نفسه؛ فهو الذى ينوب عنه فى إقامة الصلاة وهى أهم وظيفة للخليفة وقتئذ، وكان القواد يعرضون الجند قبل لقاء

---

(١) فى أحداث التاريخ فى كل زمان الشواهد لذلك. وموقف المعسكرين: الشرقى والغربى فى زماننا خير شاهد، فاستعداد كل من المعسكرين للحرب هو الذى جعل كلا منهما يتخوف من الحرب، واستعداد جمهوريتنا العربية منع إسرائيل من حربنا.

(٢) العقد الفريد جـ١ ١٠٨ ط لجنة التأليف.

العدو حتى يطمئنوا عليهم، وعلى عدتهم؛ وذلك اقتداء بالنبي صلوات الله عليه؛ فقد سن للمسلمين هذه السنة في حروبه، ومن انتهى القتال أصبحت مهمة القائد النظر في أمر الجند وتدريبهم، وتحسين معداتهم، والاستزادة منها .

وصايا أمراء الجيوش :

كان النبي صلوات الله عليه وخلفاؤه من بعده يتعهدون القواد والجند بالنصيحة التي تفيدهم في حسن أدائهم لواجبهم الأول باعتبارهم دعاة للإسلام، وفي حسن تسيير الجنود والظفر بالعدو؛ فكان ﷺ إذا بعث سرية أو جيشا تقدم إليه بالوصية؛ ومن ذلك قوله : « اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولاتغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا امرأة ولا وليدا »، وكان صلوات الله عليه ينهى في مغازيه عن النهبة، ويقول : « من انتهب نهبة فليس منا » ، وكان يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها ويقول : « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » (١) .

وشبيه بهذه الوصية وصية خليفته الأول لأسامة بن زيد قائد أول جيش غزا بعد وفاته ﷺ ؛ إذ يقول فيها : « أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر؛ فاحفظوها عني : لاتخونوا، ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا ، ولاتقتلوا طفلا صغيرا، ولاشيخا كبيرا، ولا امرأة؛ ولاتعقروا نخلا، ولاتحرقوه، ولاتقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ... » (٢)

ولعل من أحسن الوصايا وصية عمر رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص – كبير قواد الجبهة الشرقية في زمانه – ومما جاء فيها : « ... وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم؛ فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس والكراع(٣)، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم،

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم الجوزية جـ٢ ص٩٠ وما بعدها - ط. صبيح، العقد الفريد جـ١ ص١٥١ ط لجنة التأليف .

(٢) الطبري جـ٢ ص ٤٦٣ ط الاستقامة .

(٣) الكراع : الخيل .

ويرمُّون [1] أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا، ولا تستنصروا عى أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئت أرض العدو، فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم .. ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك ..» [2] .

ومن ثم كان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند، ويعاقبون كل من يتعرض لأهل البلاد المفتوحة بسوء، ولا يقاتلون إلا من يقاتلهم، ويقف فى سبيل دعوتهم، وذلك امتثالا لأوامر نبيهم، ونصائح خلفائه من بعده، على أن مهمتهم الأولى، وهى كونهم دعاة للإسلام تحتم عليهم هذا النهج القويم .

وكان لعقيدتهم أكبر الأثر فى إقدامهم على القتال، واستهانتهم بالمخاطر؛ فإن من عاش منهم عاش سعيداً، ومن مات مات شهيداً، وكانوا يكبرون ويتلون القرآن أثناء سيرهم للجهاد، كما كانوا يدقون الطبول، ويرتجزون الأراجيز لتذمير الجنود، وبث الحماس فى نفوسهم .

سمو الإسلام فى حروبه :

نهج الإسلام فى حروبه طريقاً لم يكن معهوداً من قبل فى أمة من الأمم، ولا فى شريعة من الشرائع السابقة، ومن السهل أن نتبين من الآيات الكريمة التى تعرضت لشأن القتال، ومن أفعال النبى صلوات الله عليه، ووصاياه، ووصايا خلفائه من بعده «أن الإسلام هذب أمور الحرب، ورفع مستوى الإنسانية، وبث الرحمة والعدل فى قلوب متبعيه [3]، وأوضح لهم نظاماً للحروب لم تصل إليه تلكم الأمم، التى تدعى لنفسها أنها وصلت إلى مستوى رفيع من الحضارة والمدنية .

هذه سبيل الإسلام فى شأن القتال كما يوضحها القرآن الكريم فأين منها ما جاء فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى (٣٤) : «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على

---

(١) يرمون . (بضم الراء وتشديد الميم) يصلحون .

(٢) العقد الفريد جـ١ ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار .

الأرض ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً (٣٥) فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها (٣٦) وأعداء الإنسان أهل بيته » . وما فى سفر التثنية (٢٠ : ١٠–١٦) : « حين تقترب من مدينة لتحاربها أدعها إلى الصلح؛ فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك وعملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . . . » .

« نحن الآن فى القرن العشرين، ومع هذا فالحرب لا توجد شريفة الأسباب، والوحشية تتجلى فيها فى أفظع مجاليها، ومعاملة الغالب للمغلوب أخشن ما يمكن أن تكون، مهما تزينت الحروب بأسمى أسماء العواطف الخادعة، فما الحرب العامة عنا ببعيدة، وما الصلح فيها إلا استرقاق الأمم والشعوب البريئة لمن أوتى الظفر، وإن لم يكونوا من جناتها ولا من مؤرثى نارها » (١) .

عناصر الجيش :

كان الجيش فى بادئ الأمر يتكون من العنصر العربى فقط،وظل هكذا من أيام النبى ﷺ إلى أن توسع الأمويون فى فتوحهم، وضموا شمال أفريقيا وبلاد الأندلس، فاستعانوا بالبربر فى الجيش .

وفى عهد العباسيين دخل العنصر الفارسى فى الجيش العربى . ولما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ استكثر من الأتراك (لأن أمه تركية) فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب، فدب دبيب الغيرة والحسد فى نفوس القواد وبخاصة العرب فتآمروا على التخلص من المعتصم، ولكن المؤامرة لم تنجح، وكان من أثر فشلها أن أقصى المعتصم القواد العرب والفرس ومحا أسماءهم من ديوان العطاء، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً، وكانت النهاية أن استأثروا بالأمر فيما بعد، وأصبح الخليفة لا سلطان له، وغدا فى أيدى هؤلاء الأتراك أمر توليته وعزله، أو حسبه وقتله .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

أثر المرأة فى الجيش :

كان للمرأة فى الجيش أثر فعال؛ فقد كانت تقوم بسقى الجند، وتضميد الجرحى[١] وتذمير الجيش وتحميسه للقتال، وكثيراً ما كانت تقاتل إذا حمى الوطيس، ورخصت النفوس، وكان لوجودها فى الجيش أثره فى تحميس الرجال فإنهم كانوا إذا رأوا النساء استحيوا من الفرار، واستهانوا بالموت، فيتم النصر لهم على عدوهم .

وقد قاتل النساء فى بعض غزوات النبى ﷺ والخلفاء من بعده .وإن التاريخ الإسلامى ليفخر بمثل نسيبة بنت كعب المازنية التى دافعت عن رسول الله ﷺ فى غزوة أحد حتى لقد قال فيها « ما التفت يميناً ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى »[٢].

وفى غزوة الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب اليهودى الذى كان يطيف بالحصن حتى لا يدل على عورة للمسلمين[٣] ، بل إنهن لم يكتفين بالغزو فى البر بل ركبن البحر وغزون فيه، فهذه أم حرام بنت ملحان تصحب زوجها عبادة بن الصامت مع بنت قرظة امرأة معاوية بن أبى سفيان فى أول غزوة بحرية يقوم بها المسلمون[٤].

وحمل مسلمة عبد الملك حينما غزا « عمورية » نساءه معه، وحمل ناس ممن معه نساءهم، وفى سنة ١٣٩هـ . استرد المسلمون « ملطية » وكان فى الحملة ثنتان من عمات الخليفة المنصور .

ولقد امتدح « أدوارد جيبون » فى كتابه سقوط الدولة الرومانية شجاعة النساء المسلمات فى حصار دمشق فقال :

« إن هؤلاء النساء اللاتى تعودن الضرب بالسيف، والطعن بالرمح، والرمى بالنبل

---

(١) « وكن (فى غزوة أحد) قد جئن أربع عشرة امرأة منهن فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن، ويسقين الجرحى، ويداوينهم، ومنهن أم سليم بنت ملحان، وعائشة أم المؤمنين . . . » إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص ١٣٨ ، وكذلك قاتلن فى غزوة حنين – المصدر نفسه ص ٤٠٨ .

(٢) شهدت قتال مسيلمة الكذاب باليمامة وجرحت يومئذ اثنى عشر جراحة، وقطعت يدها – لإصابة جـ٨ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) الإصابة جـ٨ ص ١٢٨ .

(٤) صحيح البخارى باب غزو المرأة فى البحر، وراجع فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٥٩ .

هن الثلاثى إذا وقعت إحداهن فى الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها، وصون دينها من أى إنسان تحدثه نفسه بإرادتها بسوء » .

تعبئة الجيش :

كان العرب فى جاهليتهم يحاربون بطريقة الكر والفر من غير أن يتبعوا فى ذلك نظاما، فلما جاء الإسلام ابتدأ التنظيم فى جيوش المسلمين . وحين نزل قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ رتب النبى صلوات الله عليه جيوش المسلمين صفوفا ثم عدل فى تنظيمهم، وترتيبهم .

ولما اتسعت الفتوح، والتقت جيوش لمسلمين بجيوش الفرس والروم وهى جيوش تسير فى حروبها وفق نظم وخطط معروفة عدلوا فى تعبئة جيوشهم بما يتفق وطرائق عدوهم . وكان تنظيم الجيش وتعبئته هكذا :

١- المقدمة وهى التى تبدأ المناوشات مع العدو، وتتعرف مواضعه ومسالكه .

٢- القلب وهو وسط الجيش وفيه القيادة وأمير الجند .

٣- الجناحان أو المجنبتان . ٤- الساقة .

وكل فرقة من هذه الفرق مقسمة إلى كراديس، ولها أمير يأتمر بأمر القائد الأعلى [١]، وكانوا يهتمون بأمر الفرسان، لما لهم من شأن عظيم فى القتال، وللاحتفاظ بخط الرجعة للجيش، حتى لا يؤتوا من خلفهم، وكانوا فى حروبهم يحذرون من البيات جهدهم .

وتعتبر موقعة اليرموك، والقادسية، وأجنادين من المواقع الحربية التى تعد مثالا لغيرها فى تعبئة الجيوش وحسن قيادتها، وقد تأسى الخلفاء الأوربيون فى الحرب العالمية الأولى بما صنعه خالد بن الوليد فى موقعة اليرموك من توحيد القيادة، واختيار الموقع المناسب للمعركة .

ظل هذا النظام سائداً فى أيام الدولة الأموية، والدولة العباسية، والأندلس مع تعديل بما يوافق تطور الحروب وخطط الأعداء .وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفى شاعر« لمتونة » ، وأهل الأندلس فى كلمة يمدح بها تاشفين بن على بن يوسف، ويصف ثباته فى الحرب، منها :

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٨ ، ٩ مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٥٤ ، ٦٥٥ .

والبس من الحلق المضاعفة التى ... وصى بها صنع الصنائع تبع
خندق عليك إذا ضربت محلة ... حصنا حصينا ليس فيه مدفع
وإذا تضايقت الجيوش بمعرك ... ضنك فأطراف الرماح توسع
واجعل من الطلاع أهل شهامة ... للصدق فيهم شيمة لا تخدع [1]

أسلحة الجيش :

كانت الدولة تتعهد الجند بكل ما يحتاجون إليه من سلاح ومؤن، وكان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة، وكانت أسلحة الفرسان هى : الدروع والسيوف والرماح وهى السلاح الرئيسى للفرسان [2] ، وأسلحة الرجالة هى الدروع، والحراب، والقسى، والسهام، والسيوف؛ فالقوس للرمى بالسهام فى أول الحرب؛ فإذا تقاربت الصفوف بدأ التطاعن بالرماح؛ فإذا وقع الالتحام كان التضارب بالسيوف .

وكان الرماة أهم عناصر فى الجيش، وكانوا يقفون فى صفوف متراصة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان؛ وكان لهم فى استعمال السهام مهارة فائقة، لحدة أبصارهم، ولحاجتهم إليها فى الصيد [3]، وقد بلغ من مهارتهم فى الرمى أن الرامى يستطيع أن يرمى إحدى عينى الغزال التى يريدها، وقد ساعدتهم هذه المهارة فى التغلب على الروم، كما كان لها أثرها الواضح فى التغلب على الفيلة فى حرب الفرس.

المنجنيق والدبابات :

لما سار الرسول ﷺ إلى الطائف لمطاردة فلول ثقيف، واعتصمت منه بالحصون، ورمت المسلمين بالنبل نصب النبى ﷺ المنجنيق ورماهم به؛ فكان ﷺ أول من رمى بالمنجنيق فى الإسلام، كما استعان على حربهم بالدبابات، وكان المحاربون يدخلون فى جوفها، ويزحفون بها إلى جدار الحصن لينقبوه .

الجاسوسية :

كان النبى ﷺ يهتم بتعرف أخبار عدوه، واستطلاع أحواله؛ فكان يزكى العيون ليأتوه بخبره، ويعلموه بأمره؛ ومن ذلك أنه أرسل عبد الله بن جحش فى اثنى

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٦٢ .

(٢) كانت الرماح هى السلاح الرئيسى للفرسان، وكانت رماحا تبلغ نحوا من عشرة أذرع، الحضارة العربية للأستاذ هل ص ٥٠ .

(٣) انظر العقد الفريد جـ ١ ص٢١٨ وما بعدها؛ فقد ذكر فى ذلك الشىء الغريب .

عشر مهاجرا إلى «نخلة» بين مكة والطائف ليترصد بها قريشا، ويعلم من أخبارهم، كما أرسل إلى بدر رجلان يستقيان، ويتنطسان [١] الأخبار، وفى أحد بعث أنسا ومؤنسا ابنى فضالة يلتمسان خبر قريش؛ فأخبراه بما علما، وهكذا كان صلوات الله عليه يهتم بأخبار عدوه ليأخذ حذره، وليعد للأمر عدته .

وكذلك سار خلفاؤه من بعده، فنرى عمر رضى الله عنه يقول فى وصاته لسعد ابن أبى وقاص : «فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم . . » .

وفى عهد العباسيين عنوا بها وأحكم أمرها، حتى إنهم كانوا يستخدمون لذلك الرجال والنساء الذين كانوا يذهبون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى زى التجار، أو الأطباء، أو غيرهما، ويتنطسون الأخبر، ثم يعودون بها إلى الدولة لتحتاط للأمر، ولم تكن الجاسوسية أكثر نشاطا، ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية التى كانت لا تزال تنافس الدولة الإسلامية [٢] .

حرب الأعصاب :

كذلك عرف المسلمون حرب الأعصاب، واستغلوها فى توهين العدو، وإضعاف عزيمته للقتال، ومن ذلك أن المسلمين حينما حاصروا قنسرين تحصن أهلها، منهم؛ فأرسل إليهم خالد بن الوليد يقول : «لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم إلينا» ؛ فألقوا السلم، وفتحوا مدينتهم للمسلمين .

الأسلحة الوقائية .

استعمل النبى الحسك وأحاط به عسكره ليمنع العدو من الدنو من جنده [٣] كما تستعمل الجيوش الآن الأسلاك الشائكة .

وكانوا يحذرون من البيات ومباغتة العدو لهم، واستعملوا الخوذة والبيضة لوقاية الرأس والعنق، والترس لاتقاء ضربات الخصم، والدرج لوقاية الجذع و لأطراف .

تطور الأسلحة ، ونظام التعبئة .

عرف العرب فيما بعد كثيرا من لأسلحة، ومنها البارود الذى اخترعه عرب

---

(١) يتنطسان : المتنطس من أدق النظر فى الأمور، واستقصى علمها – مختار الصحاح .

(٢) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

(٣) الحسك شوك مدحرج لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس – سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٠٣، إمتاع الأسماع ص ٤١٦ .

المغرب واستعملوه فى حروبهم (٦٧٣ هـ – ١٢٧٣ م) أى قبل أن تعرفه أوربا بنحو نصف قرن من الزمان [١] .

وقد وصف المسعودى حصار جند المأمون بغداد بما يبين الأسلحة والآلات التى كانت تستعمل فى الحروب فى ذلك الوقت فقال :« ونصب (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنيقات، ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة فتأذى الناس به، وصمد نحوه خلق من العيارين، وأهل السجون، وكانوا يقاتلون عراة، فى أوساطهم التبايين والميازر، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص، وسموها الخوذ، ودرقا من الخوص، والبوارى قد قيرت، وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير[٢]. ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده؛ فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير، وناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر، ومقاود قد اتخذت، ولجم وأذناب من مكانس ومذاب، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة على رءوسهم خوذ، ودرق البوارى، ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك، فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول المعدة، والجواشن، والدروع، والتجافيف، والرماح، والدرق التبتية . . . . ، [٣] .

من هذا يتضح أن الحرب فى الإسلام ما كانت اعتداء، وأن نظم الحرب مرت بأطوار عدة تبعا للأحوال والملابسات، وأن المسلمين قد استعملوا كل سلاح يتكافأ مع سلاح عدوهم، ويوصلهم إلى النصر، والفوز المبين .

---

(١) تاريخ ابن خدون جـ ٧ ص ١٨٨ .

(٢) راجع الطبرى جـ٣ ص ٨، ٩ ومنه يتبين أن هذا النظام فى جملته كان معروفاً فى زمن النبى ﷺ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ ص ٣٠٧، ٣٠٨ ، والعيارون قوم يختفون نهاراً ويظهرون ليلا (لصوص)، والتبابين جمع تبان (بالضم والتشديد) وهى سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة المغلظة فقط (مايوه) تكون للملاحين والمصارعين، والدرق جمع درقة الجحفة وهى ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب، والبوارى جمع بورى أو بورية وهو الحصير المنسوج من القصب، قيرت : طليت بالقار، والجوشن مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبن الزرد أن يكون من حلقة واحدة، والجوشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك، والتجافيف جمع تجفاف وهو ما جلل الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ، والتبتية نسبة إلى تبت بلدة بأرض الترك – النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

البحرية

نشأة الأساطيل [١] الإسلامية

لم يكن عرب الحجاز[٢] أول الأمر – لبداوتهم – مهرة فى ركوب البحر، وثقافته، وممارسة أحواله [٣] وأول من ركبه منهم للفتح [٤] العلاء بن الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد أحب أن يؤثر فى الفرس أثراً يعز الله به الإسلام؛ ففى سنة ١٧هـ ندب أهل البحرين لفتح بلاد فارس؛ فبادروا، فحملهم فى السفن [٥] بغير إذن عمر رضى الله عنه. وعبر بهم الخليج الفارسى، ولكنه لم يفلح فى غزوته، وغرقت سفنه التى عبر بها الخليج – وإن كان قد عاد هو وجنده إلى البصرة محملين بالغنائم – فشق ذلك على عمر وعزله، «وتوعده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه»[٦] وهو يومئذ أمير الكوفة.

ولما فشا الإسلام، وخفقت أعلامه على سواحل الشام ومصر، ورأى المسلمون سفن الروم، وعرفوا مهارتهم فى ركوب البحر، والحرب فى أساطيله، تاقت نفوسهم

---

(١) الأساطيل جمع أسطول وهو السفن التى يسافر فيها للقتال، وقد وقع فى أشعار العرب بعد العصر الأول. قال على بن محمد الأمادى من قصيدة له:

أعجب بأسطول الإمام محمد وبحسنه وزمانه المستغرب

راجع كتاب شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل لشيخ الإسلام شهاب الدين الخفاجى قاضى العسكر بمصر ص ٣٨.

(٢) مخرت سفن العرب من حمير وسبأ، البحر الأحمر، والمحيط الهندى؛ فقد كانت لهم صلات تجارية بكثير من البلاد تستدعى ركوب البحر، وساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافى؛ فبلاد اليمن يحيط بها الماء من الغرب حيث البحر الأحمر، ومن الجنوب حيث المحيط الهادى..

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٢٨.

(٤) ركب عرب الحجاز البحر لغير الفتح كما حدث عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة.

(٥) سفنه يسفنه قشره، ومنه السفينة لمشرها وجه الماء، وجمعها سفائن وسفن وسفين، وصانعها سفان، وحرفته السنانة – القاموس.

(٦) الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٨٩.

للغزو فى البحر، ومجاراة الروم فى ذلك، ولحماية السواحل والبلاد التى فتحوها، ودفع أخطار الروم عنها، وكان أشدهم توقا إلى ذلك معاوية والى الشام، فقد كتب إلى الخليفة عمر يستأذنه فى غزو الروم بحراً فأبى، فألح عليه ورغبه فى الفتح والمغانم، وقال له فيما قال: «إن قرية [1] من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر؛ فكتب إلى عمرو بن العاص أن صف لى البحر وراكبه، فإن نفسى تنازعنى إليه»؛ فكتب إليه عمرو: «يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود إن مال غرق، وإن نجا برق [2]»؛ فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: «لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً»، «وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لى وقد تقدمت إليك، وقد علمت مالقى العلاء منى، ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك» [3].

ولما ولى عثمان رضى الله عنه الخلافة «لم يزل به معاوية حتى عزم على ذلك بآخرة، وقال: «لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل [4]».

ولما استقر الأمر للمسلمين، وشمخ سلطانهم، وخضع لهم غيرهم تقرب إليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته، وأنشأوا لهم السفن والشوانى [5]، فاستخدموا لها من

---

(١) هى قرية فى جزيرة أرواد (بالفتح ثم السكون وواو، وألف ودال)، وفتح المسلمون هذه الجزيرة سنة ٥٤ هـ فى أيام معاوية بن أبى سفيان. معجم البلدان لياقوت.

(٢) الطبرى جـ٣ ص ٣١٦، العقد الفريد جـ١ ص ١٠٤ لجنة التاليف، الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٩٠، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٢٦٨ برق كفرح ونصر برقا وبرقا تحير لا يطرف، أو دهش فلم ينصر – القاموس.

(٣) الطبرى جـ٣ ص ٣١٦.

(٤) الطبرى جـ٣ ص ٣١٥، ٣١٦، ط الاستقامة، تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٠٤، ١٠٥ فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٥٩، وما بعدها، تاريخ أبى الفداء جـ١ ص١٦٧، العقد الفريد جـ١ ص ١٠٤، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٢٨.

(٥) الشونة (بسكون الواو) المركب المعد للجهاد فى البحر – القاموس.

النواتية [١] فى حاجتهم البحرية أمما تقوم عليها، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته؛ فاستحدثوا بصراء بها، وشرهوا إلى الجهاد فيه،وأنشأوا السفن والشوانى، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر، والمقاتلة لمن وراء البحر، الذى جعلوه مقرًا لأساطيلهم، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته، مثل :الشام، وإفريقية، والمغرب، والأندلس [٢] .

دور الصناعة [٣] :

فى ولاية مسلمة بن مخلد على مصر، غزا الروم البرلس سنة ٥٣ هـ ، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، فاهتم أمراء مصر ببناء السفن، وأنشئت لأول مرة دار لصناعتها فى جزيرة الروضة سنة ٥٤ هـ [٤] ، أطلق عليها « دار الصناعة » .

ولما ولى الخلافة عبد الملك بن مروان (سنة٦٥ – ٧٦ هـ) بعث إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس، لإنشاء السفن، والآلات البحرية [٥] .

واشتهر أحمد بن طولون ٢٧٠ هـ بإنشاء السفن الحربية، وقام بتوسيع دار الصناعة وتحسينها، وجعل لها أحواضاً حول جزيرة الروضة، كانت تعرف باسم « صناعة السفن»؛ ثم انتقلت هذه الدار إلى الفسطاط فى أيام الأخشيد (٣٢٣–٣٣٤هـ) فى المصنع المعروف باسم « صناعة السفن » ؛ فغدت السفن الحربية والنيلية تصنع فى « صناعة مصر» مرة، وفى « صناعة الجزيرة » مرة أخرى [٦] .

ولما فتحت صقلية فى أيام الأغالبة فى عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات، ازداد المسلمون رغبة فى غزو البحر، فبالغوا فى إنشاء

---

(١) النوتى الملاح الذى يدير السفينة فى البحر . . وقد نات ينوت إذا تمايل من النعاس، كأن النوتى يميل بالسفينة من جانب إلى جانب وهو من كلام أهل الشام – لسان العرب .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٢٨ .

(٣) دار الصناعة: كانت فيما مضى تطلق على ما يسمى فى عرفنا الآن (الترسانة) ، وهى « اسم المكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية » – الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٨٩ .

(٤) الخطط للمقريزى ، جـ ٢ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٢٨ ، الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٦) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

الأساطيل فى إفريقية، والأندلس، وبلغ عدد سفن الأندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر فى أواسط القرن الرابع الهجرى ٢٠٠ سفينة، وكان أسطول إفريقية نحو ذلك، وتعددت دور الصناعة هناك [١] .

وفى عهد الدولة الفاطمية هدد الروم بلاد الشام، واستولوا على بعضها مثل أنطاكية، وحلب؛ فدعت الضرورة إلى أسطول قوى؛ فأنشأ المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بالمقس قريباً من مدينتهم « القاهرة » ، صنع بها ٦٠٠ سفينة من أقوى السفن وأحسنها كما وصفها المسبحى المؤرخ المصرى (٤٣٠ هـ) بقوله : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً » [٢] .

وقد مدح ابن هانئ الشاعر الأندلسى المعز، وأشاد بأسطوله فى قصيدة طويلة منها :

لك البر ، والبحر العظيم عبابه ... فسيان أغمار تخاض، وبيد
أما والجوار المنشآت التى سرت ... لقد ظاهرتها عدة، وعديد
مواخر فى طامى العباب كأنها ... لعزمك بأس، أو لكفك جود
من الراسيات الشم لولا انتقالها ... فمنها قنان شمخ، وربود
من القادحات النار تضرم للطلى ... فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود [٣]

وفى أيام الظاهر بيبرس (٦٧٦ هـ) اهتم بإعادة شأن الأسطول إلى ما كان عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٧ هـ) ، ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن، وأمر بإنشاء الشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط، وكان يذهب إلى دار الصناعة بالجزيرة، ويشرف بنفسه على إعدادها، وقد تسنى له بذلك أن يعد أسطولا مكوناً من أربعين سفينة .

وكذلك كان الاهتمام بالأسطول فى أيام الأشرف قلاوون؛ فقد أنشأ أسطولا مكوناً من ستين سفينة، جهزها بالآلات الحربية وبالرجال [٤] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٢٩ .
(٢) الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ١٩٥ .
(٣) راجع ديوان ابن هانئ . .
(٤) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

أنواع السفن :

كانت السفن الحربية أنواعا متفاوتة فى شكلها وجرمها، وقوتها، تبعاً للأغراض المختلفة، ومن أهمها .

١ - الشونة وهى مراكب كبيرة، كانوا يقيمون فيها أبراجا، وقلاعا للدفاع، وكانت تتسع لمائة وخمسين رجلا، ويحركها مائة مجداف .

٢ - الحراقة : وكانوا يحملون فيها منجنيقات، يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء .

٣- الطرادة: وهى سفينة صغيرة سريعة الجرى .

معدات السفن :

كانت معدات السفن للقتال كثيرة متنوعة منها .

١- الكلاليب: وهى خطاطيف من حديد يلقونها على إحدى سفن العدو فيوقفونها ثم يشدونها إليهم، ويرمون عليها الألواح كالجسر، ريدخلون إليها، ويقاتلون من فيها .

٢- الباسليقات . وهى سلاسل فى رءوسها رمانة من حديد .

٣- التوابيت . وهى صناديق مفتوحة من أعلاها، يضعونها فى أعلى السوارى، ويجعلون فيها رجالا معهم أحجار صغيرة فى مخلاة بجانب الصندوق يرمون بها العدو، وهم مستورون بالصناديق .

٤- قوارير النفط للإشعال .

٥- جرار النورة . وهى مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ، يرمون بها فى سفن الأعداء فتعمى الرجال بغبارها .

٦- قدور الحيات والعقارب، يرمون بها فى سفن الأعداء فتحدث اضطراباً وهرجا .

٧- قدور الصابون اللين اللزج، لتزلق أقدامهم .

٨- اللجام ، وهو أداة كالفأس تجعل فى مقادم المراكب . وهى عبارة عن حديدة

طويلة محددة الرأس جدا، تدخل فى خشبة كالقناة بارزة تشبه سنان الرمح . فيحتالون فى طعن المراكب به، حتى يخشى عليها الغرق؛ فيطلب أهلها الأمان .

طرق الوقاية :

١- كانوا يعلقون حول السفينة من الخارج الجلود أو اللبود المبللة بالخل، أو الماء والشب والنطرون .

٢- الطين المخلوط بالبورق والنطرون .

٣- الخطمى المعجون بالخل؛ فإن هذه المواد تقاوم فعل النفط .

٤- كانوا لا يشعلون ناراً إذا جن الليل، ولا يتركون ديكا حتى لا يصيح، فيعلم العدو مكانهم .

٥- قد يسدلون قلوعا زرقاء على السفن، كيلا تظهر من بعد، مبالغة فى الحذر [١] .

قيادة الأساطيل :

كان لكل أسطول قائد، ورئيس، ونواتية؛ فالقائد يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاديف، وأمر إرسائه فى مرفئه، والنواتية يعملون بأمر الرئيس .

وإذا اجتمعت جملة أساطيل ولوا عليها أميرا من أعلى طبقات الدولة [٢] يسمونه أمير البحر، ومن هذا اللفظ أخذ لفظ (أميرال) الإفرنجى .

وفى عهد الفاطميين كان على رأس الأسطول المصري عشرة قواد، عليهم رئيس يسمى قائد القواد، ولهم مرتبات قد تصل إلى ٢٠ ديناراً فى الشهر، كما كان للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليه، وقد بلغت الجنود البحرية فى أيامهم خمسة آلاف، لهم الرواتب المعينة .

ولما انتقل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبى اهتم بأمر الأسطول اهتماما كبيراً وأنشأ له ديواناً خاصاً سمى « ديوان الأسطول » وعهد به إلى أخيه العادل .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص٦٢٩ .

وقد اشتهر من أمراء البحر العرب، عدد كبير من بينهم، عبد الله بن سعد بن أبى شرح، وعبد الله بن قيس الحارثى، وجنادة بن أمية، وأسد بن الفرات فاتح صقلية، وأحمد الصقلى، قائد أساطيل المغرب فى القرن السادس الهجرى، الذى بلغت الأساطيل الإسلامية فى عهده منزلة لم تبلغها قبله ولا بعده .

الاحتفال بالأساطيل :

كان الفاطميون يحتفلون بالأسطول - حينما يخرج للغزو - احتفالاً شائقاً، وكان الخليفة يحضر هذا الاحتفال؛ فيجلس فى منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس، لوداع الأسطول، فتنحدر المراكب، وتقلع وتفعل ما تفعله أن لو كانت فى حرب، وهو ما يسمى اليوم (مناورة)، ثم يحضر الرئيس، والمقدم بين يدي الخليفة، فيودعهما، ويدعو لهما، ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو .

وهكذا كان يفعل بعض السلاطين من بعد، كالسلطان الأشرف قلاوون، وقد ذكر المقريزى [١] وصفاً شائقاً لاحتفاله بإنشاء أسطوله وعرضه .

أثر الأساطيل فى الفتوح :

لما فتح الله على المسلمين الشام ومصر، أصبح إنشاء أسطول بحرى أمراً لازماً لحماية المرافئ، والمدن الإسلامية، ومنازلة الأعداء، الذين كانت لهم السيادة البحرية فى هذه المنطقة منذ القدم .

وكان معاوية أول من غزا الروم فى البحر؛ فقد أبحر إلى قبرص [٢] سنة ٢٨ هجرية، كما أبحر إليها أهل مصر، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ولقوا معاوية، فكان على الناس، وصالحه أهلها على ٧٠٠٠ دينار يؤدونها إلى المسلمين فى كل سنة، وعلى أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم، ويكون طريق المسلمين إلى

---

(١) جـ ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) قبرص جزيرة ذات أهمية كبرى، ولموقعها الممتاز فى شرقى البحر الأبيض كانت الدول تتصارع للسيطرة عليها من عهد تحتمس الثالث؛ فموقعها يتيح لمن يسيطر عليها أن يسود هذا الجزء من البحر، وأن يبحر منها فى وقت قصير إلى لبنان ومصر وغيرهما، ولذا استهل العرب نشاط أسطولهم بغزوها .

العدو عليهم؛ وبذلك صارت قبرص نقطة اتصال بين أهل الشام وأساطيلهم التى أخذت تمخر فى بحر الروم [١] .

وحارب عبد الله بن سعد بن أبى سرح قسطنطين بن هرقل قيصر الروم، وانتصر عليه فى موقعة « ذات الصوارى » سنة ٣١ وقيل ٣٤ هـ، وكانت سفن المسلمين مائتى سفينة أو تزيد قليلا، فى حين أن سفن الروم كانت أكثر من ٦٠٠ سفينة [٢] .

ومن ثم صارت الدولة الإسلامية فى عهد عثمان رضي الله عنه دولة بحرية، بما استولت عليه من سفن الروم، وبما استحدثه معاوية، وعبد الله بن سعد من السفائن، ومن ذلك الوقت أصبحت الحملات البحرية تتوالى على البلاد البيزنطية، واستعمل معاوية عبد الله بن قيس الحارثى على البحر؛ فرتب الغزو عليها صيفاً وشتاء، وغزا خمسين غزاة بين صائفة وشاتية [٣] .

استطاع المسلمون بعد أن مرنوا على ركوب البحر، والحرب فى أساطيله، أن يفتحوا جزر بحر الروم المتقطعة عن السواحل فيه، مثل: ردوس التى كانت بها دار لصناعة السفن الرومية، وسردانية (سردينيا)، وصقلية (سيسليا) ، ومالطة، وأقريطش (كريد) وغيرها .

وسارت أساطيله فى بحر الروم ذاهبة جائية، وعليها الجنود تجيز البحر من صقلية إلى شواطئ إيطاليا، تثخن فى ممالك الإفرنج، وخصوصاً فى أيام بنى الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة الفاطميين، فانحاز الإفرنج بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى من هذا لبحر [٤] .

---

(١) ركبت أم حرام بنت ملحان البحر مع زوجها عبادة بن الصامت فى هذه الغزوة، وكانت قد طلبت من النبى ﷺ أن يدعو الله لها أن تكون ممن يركبون ثبج هذا البحر؛ فقال لها ﷺ : أنت فى الأولين – راجع نص هذا الحديث فى البخارى كتاب الجهاد، والاستئذان، والتعبير، ورواه مسلم فى الإمارة، وراجع فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٥٩ .

(٢) المقريزى فى خططه جـ٢ ص ١٩٠ قال : إنها ألف سفينة .

(٣) الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٩٠ .

(٤) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

يقول «آدم متز» : «لم يكن لأوربا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي؛ فقد كان بحراً عربيًّا، وكان لابد لمن يريد أن يقضى لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب، كما فعلت نابلى، وغيته، وأمالفى، ويظهر أن الملاحة الأوربية نفسها كانت فى ذلك العصر على حال يرثى لها من الضعف» . (١) .

وهكذا استطاع المسلمون منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة أن يبنوا لأنفسهم مجداً بحريًّا تحدثت به انتصاراتهم الباهرة التى خلدها لهم التاريخ؛ وبذلك صاروا سلاطين البحر، كما كانوا سلاطين البر .

وظل الأمر كذلك إلى أن ضعفت الدولة الفاطمية بمصر، والأموية بالأندلس، وأفاق الإفرنج، واسترجعوا بلادهم، ثم غزوا بلاد المسلمين، وكان ما كان من الحروب الصليبية التى نشبت من سنة ١٠٩٦ إلى سنة ١٢٧٠م على ما هو معروف فى التاريخ (٢) .

كذلك كان للمسلمين أسطول تجارى كبير يمخر عباب البحر، ويحمل أصناف التجارة إلى البلاد الإسلامية، كما سيتبين فيما بعد .

* * *

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٤٢٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٣٠ .

obeikandl.com

حكومة الأقاليم

لما استقر ﷺ بالمدينة، وانتشر الإسلام فى جزيرة العرب، بعث صلوات الله عليه عماله، وأمراءه إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، وكانت مهمة هؤلاء العمال، والأمراء، إمامة الناس فى الصلاة، وجمع الصدقات، وكان يختار عماله ممن عرف بالتقوى، والعلم، والفقه فى الدين .

ومن أهم عماله ﷺ :

١- عثمان بن أبى العاص وكان على الطائف

٢- العلاء بن الحضرمى وكان على البحرين

٣- زياد بن لبيد وكان على حضرموت

٤- المهاجر بن أبى أمية وكان على صنعاء

٥- عتاب بن أسيد الأموى وكان على مكة (١)

وأول راتب فرضه النبى ﷺ للعمال هو راتب عتاب بن أسيد، وكان درهما فى كل يوم .

وفى عهد أبى بكر كانت الجزيرة العربية هى البلاد التى تحت الإدارة الإسلامية نهائيًا، وقد جعلها عدة ولايات، على كل ولاية أمير، وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة، وجمع الصدقات، والفصل فى القضايا، وإقامة الحدود، فهو أمير وقاض، ومنفذ، يقوم بعمل الشرطة .

وهذه هى الولايات وولاتها فى أيامه :

١- مكة وعليها عتاب بن أسيد

٢- الطائف وعليها عثمان بن أبى العاص

---

(١) راجع الطبرى جـ ٢ ص ٤٠٠ ط الاستقامة، سيرة ابن هشام جـ٢ ص٣٤٩، وعتاب من مسلمة الفتح، ولما خرج النبى ﷺ إلى حنين استعمله على مكة، وكان عمره ٢٠ سنة، ومات هو وأبو بكر فى وقت واحد لم يعلم أحد منهما بموت الآخر المعارف لابن قتيبة، خلاصة تذهيب الكمال، إمتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٤٠٣ .

٣- حضرموت وعليها زياد بن لبيد

٤- صنعاء وعليها المهاجر بن أبى أمية

٥- البحرين وعليها العلاء بن الحضرمى

وهؤلاء الخمسة هم الذين كانوا ولاة فى زمن النبى ﷺ، قرهم أبو بكر رضى الله عنه على ولاياتهم .

٦- خولان وعليها يعلى بن أمية

٧- زبيد ورمع وعليهما أبو موسى الأشعرى

٨- الجند وعليها معاذ بن جبل

٩- نجران وعليها جرير بن عبد الله البجلى

١٠- جرش وعليها عبد الله بن ثور

أما العراق والشام فكانت الحروب لاتزال قائمة فيهما، وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيهما .

وفى عهد عمر اتسعت رقعة البلاد الإسلامية؛ فقسمها إلى أقسام إدارية كبيرة، وجعل على كل قسم منها وال يتولى شئونها . حتى يسهل حكمها والإشراف عليها. وعلى مواردها .

وكان يختار الولاة من أماثل القوم وأفضلهم سمتا وهدياً، سيرا على سنن النبى صلوات الله عليه فى اختيار الأصلح للولاية . وكان يتعهدهم بالنصح والإرشاد؛ ومن ذلك نصيحته لبعض عماله التى يقول فيها «إنى لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة. فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم . ولا تجمروهم فتفتنوهم . ولا تمنعوهم فتظلموهم . وأدروا لقحة المسلمين» (١) .

وهذه هى الأمصار الكبرى فى آخر عهد عمر . وأول عهد عثمان :

١- مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعى

٢- الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

---

(١) الخراج للقاضى أبى يوسف ص ٦٦ ط الأميرية .

٣- صنعاء وأميرها يعلى بن منبه

٤- الجند وأميرها عبد الله بن أبى ربيعة

٥- البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبى العاص الثقفى

٦- الكوفة وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى

٧- البصرة وأميرها أبو موسى الأشعرى

٨- دمشق وأميرها معاوية بن أبى سفيان

٩- حمص وأميرها عمير بن سعد

١٠- مصر وأميرها عمرو بن العاص

وبذلك أصبح للدولة الإسلامية نظام إدارى يكفل حسن الإشراف عليها .

وفى عهد الأمويين بلغت الدولة أقصى ما وصلت إليه من الاتساع، وقد قسمت إداريًا إلى خمس إمارات كبرى يحكم كل واحدة منها أمير مرتبط بالخليفة رأسا وهى :

١- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢- مصر بقسميها : السفلى والعليا .

٣- العراقان - العربى : ويشمل بلاد بابل وآشور القديمة، والعجمى وهو بلاد فارس نفسها .

٤- بلاد الجزيرة، ويتبعها أرمينية، وأذربيجان، وبعض أراضى آسيا الصغرى .

٥- إفريقية الشمالية . وتشمل ما غرب مصر، وبلاد الأندلس، وجزيرة صقلية . وسردانية . والبليار . ومركزها القيروان .

تعين الولاة وكبار العمال :

اتبع الأمويون طريقة الخلفاء الراشدين؛ فكانوا هم الذين يعينون الولاة والقضاة وقواد الجيش، وكانوا يعينونهم من العرب، فكانت دولتهم عربية صميمة، وكان كثير من الموظفين الذين يلون هؤلاء فى المرتبة من أهل البلاد الأصليين، وكان يوكل إليهم كثير من الأعمال، وبخاصة أعمال الدواوين، واستمر الأمر كذلك إلى زمن عبد الملك ابن مروان؛ إذ نقلت الدواوين إلى العربية، ونهى عن استخدام غير العرب في أعمال الدولة، مما ترك أثراً فى نفوس غير العرب ظهر واضحا فى أيام مروان الثانى .

الوالى :

كان الوالى هو الرئيس الأعلى لحكومة الأقاليم، وهو الذى يؤم الناس فى الصلاة نيابة عن الخليفة . وإليه أعمال الخراج وبيده شئون الحرب . وله الإشراف على الشرطة . فكان يتمتع بقسط كبير من الاستقلال الداخلى، ولا يرجع إلى الخليفة إلا فى المهم من الأمور .

وكانت أعمال الجباية تناط فى كثير من الأوقات بموظف خاص يطلق عليه «صاحب الخراج» يعين من قبل الخليفة . ويقوم بمهام وظيفته مستقلا عن الوالى .

وكان الخلفاء العباسيون يتبعون سياسة تغيير الولاة بين وقت وآخر، مما جعل الولاة ينصرفون عن القيام بالأعمال المثمرة، ولا يكادون يتمون شيئا من الإصلاحات النافعة فى ولاياتهم .

وكانت أعمال الدولة لا تسند إلا إلى من عرف بالمرونة السياسية، والخبرة الإدارية، وحسن التدبير . ولكن المحاباة لم تلبث أن تغلغلت فى أيام يزيد بن عبد الملك حتى غدت عاملا أسياسيًّا فى الترشيح لتولى أعمال الدولة، كما ظهرت فيما بعد بادرة أخرى نجم عنها أسوأ النتائج؛ فقد كان بعض الولاة يعمدون كثيراً إلى إرسال شخص ينوب عنهم فى حكم البلاد التى يعينون عليها، ويقيمون هم فى حاضرة الخلافة حتى يضمنوا رضاء الخليفة الدائم بما يوالونه به هو وحاشيته من الهدايا، وليتمتعوا بمباهج حاضرة الخلافة ومسراتها، وكان أولئك النواب ينتهزون الفرصة لابتزاز أموال الدولة، والجنوح إلى الرشوة .

ظل الولاة من العرب إلى أيام المعتصم، وفى عهده ومن جاء بعده تدخل القواد الأتراك فى شئون الدولة، واستبدوا بالأمر؛، فصاروا يختارون الولاة من الأتراك مما أدى إلى تذمر كل من العرب والفرس، وإثارة الكثير من الاضطراب فى الدولة .

وكان أهم الموظفين فى الولايات هم :

صاحب الشرطة، عامل الخراج، صاحب البريد، رجال الجيش .

١- كان صاحب الشرطة هو الذى يعتمد عليه الوالى فى استتباب النظام

والضرب على أيدى المفسدين، والقبض على الجناة، وكان ينوب عن الوالى إذا غاب فى إمامة الصلاة، وأعطيات الجند .

٢- عامل الخراج: وكثيراً ما يليه الوالى بنفسه، وقد يسنده الخليفة إلى غيره، وكان إليه تقدير الضرائب وتحصيلها، ودفع أعطيات الجند، وما إلى ذلك، وإرسال ما يتبقى إلى بيت المال بحاضرة الخلافة؛ ومن ثم كان التنافس بينه وبين الوالى .

٣- صاحب البريد: وكانت مهمته أولا نقل الأخبار من دار الخلافة إلى الولايات وبالعكس، ثم اتسعت مهمته بعد أن أسند إليه الخلفاء العباسيون التجسس على ولاة الأقاليم، وكبار الموظفين، ومراقبة شئون الحكومة فى الولايات .

٤- رجال الجيش، أو المقاتلة: وكان الوالى هو الذى يقودهم فى الحروب، وربما أسند قيادتهم إلى من يرى فيه الكفاية لذلك .

تنوع الإمارات :

تنوعت الولايات وصارت متفاوتة على ما اقتضاه الزمان والمكان، ولكنها ترجع إلى إمارتين: إمارة عامة، وإمارة خاصة .

الإمارة العامة ضربان : إمارة استكفاء، وإمارة استيلاء .

إمارة الاستكفاء :

هى أن يفوض الخليفة للأمير إمارة بلد أو إقليم، ولاية على جميع أهله، ونظراً فى المعهود من سائر أعماله، فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل، ومعهوداً من نظر؛ فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور :

١- تدبير الجيوش، وترتيبهم فى النواحى، وتقدير أرزاقهم .

٢- النظر فى الأحكام، وتقليد القضاة والحكام .

٣- جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما .

٤- حماية الدين، والدفع عن الحريم، ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل .

٥- إقامة الحدود فى حق الله، وحقوق الآدميين .

٦- الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها، أو يستخلف عليها .

٧- تسيير الحجيج من عمله، ومن سلكه من غير أهله؛ فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن به ثامن وهو :

٨- جهاد من يليه من الأعداء، وقسم غنائمهم فى المقاتلة، وأخذ خمسها لأهل الخمس (١) .

ويعتبر فى هذه الإمارة من الشروط ما يعتبر فى وزارة التفويض؛ لأن الفرق بينهما خصوص الولاية فى الإمارة، وعمومها فى الوزارة، وليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق فى الشروط المعتبرة فيها، ثم إن كان الخليفة هو الذى قلده الإمارة فليس لوزير التفويض عزله ولا نقله من إقليم إلى غيره، ولكن له عليه حق المراعاة والتصفح، وإن كان الوزير قد انفرد بتقليده فله عزله ونقله وإذا كان تقليد الأمير من قبل الخليفة لم ينعزل بموت الخليفة، وإن كان من قبل الوزير انعزل بموت الوزير؛ لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين، وتقليد الوزير نيابة عن نفسه، وينعزل الوزير بموت الخليفة وإن لم ينعزل به الأمير؛ لأن الوزارة نيابة عن الخليفة، والإمارة نيابة عن المسلمين (٢) .

وكانت أكثر ولايات الإسلام على هذه الصورة، وخصوصاً ما بعد منها عن مركز الخلافة كالعراق فى أيام الأمويين، ومصر ولشام فى أيام العباسيين .

ومن أشهر عمال الاستكفاء فى أيام الأمويين عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه، وبشر بن مروان، والحجاج، ويزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك، وعمر بن هبيرة، وخالد بن عبد الله القسرى؛ فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف فى إمارته تصرف الملوك المستقلين، فيعين العمال على البلاد تحت إمارته، وسائر عمال حكومته، ويجبى الأموال، فينفق منها على جنده، وفيما تقتضيه مصلحة إمارته، ويرسل مايبقى عنده إلى بيت المال .

وسار الخلفاء العباسيون على غرار هذه الخطة، وكثيراً ما كانوا يفوضون إلى بعض خاصتهم عملا من الأعمال؛ فيرسل هذا من يقوم مقامه فى ذلك العمل، ويبقى هو فى حاضرة الخلافة .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص٢٤ ، ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه .

وكانت إمارة الاستكفاء هذه من جملة الأسباب التى ساعدت على تشعب الدولة العباسية إلى دول مستقلة؛ لأن الوالى كان يقيم فى ولايته كأنه ملك مستقل إلا فيما يتعلق بإرسال فضلات الخراج إلى الخليفة والخطبة له، وضرب النقود باسمه، وأمور أخرى لا تضغط على إرادته، فإذا كان الوالى ذا دهاء، وآنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الإقليم على ولائه واستقل بعمله إما استقلالا تامًّا، وإما على مال معين يبعث به إلى الخليفة ببغداد، أو على شروط أخرى، وعلى هذا النمط استقل الأغالبة فى إفريقية، وابن طاهر فى خراسان، وابن طولون فى مصر . ولكن تلك الأقاليم التى استقلت كانت مع ذلك تعد إمارات عباسية، ويعبرون عنها بإمارة الاستيلاء .

إمارة الاستيلاء :

وهى أن يستولى الأمينرة بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها؛ فيكون الأمير باستيلائه مستبدًّا بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفذاً لأحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة، ومن الحظر إلى الإباحة .

الإمارات الخاصة :

هى أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش، وسياسة الرعية، وحماية البيضة، والدفاع عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء أو الأحكام، أو لجباية الخراج والصدقات فى شىء حتى الإمامة فى الصلاة فربما كان القاضى أولى بها منه .

والخليفة يعين لهذه الإمارة قضاة وجباة من عنده، فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزى، وهم يؤدون أعطيات الجند وغيرها مما يجمعون [1] .

والإمارات الخاصة كانت قليلة فى أيام الدولة العباسية .

* * *

(١) راجع الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ٢٤ ، ٢٨ .